سر تطور الأمم

تأليف

د. جوستاف لوبون

تقديم ومراجعة

أحمد فتحي زغلول باشا

الكتاب:سرتطور الأمم

الكاتب:د. جوستاف لوبون

تقديم ومراجعة: أحمد فتحي زغلول باشا

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

لوبون، جوستاف

سر تطور الأمم / د. جوستاف لوبون تقديم ومراجعة: أحمد فتحي زغلول باشا – الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٨٠ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٩ – ٤٣ – ٦٨١٨– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٧٦٧٤ / ٢٠٢٠

سر تطور الأمم

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مقدمة

الحمد لله على نعائمه والصلاة والسلام على رسوله وسائر أنبيائه

نقلت إلى العربية منذ ثلاث سنين كتاب "روح الاجتماع" للدكتور العلامة جوستاف لوبون فاستقبله القراء بالحسنى وكان واضعه قد سبقه بمؤلف من نوعه سماه "سر تطور الأمم" رجع إليه في مواضع كثيرة من روح الاجتماع. فلما قرأته رأيت من الواجب أن أقدمه لقراء الكتاب الأول حتى يجتمع لديهم الفرع بأصله. وقد لا يمضي زمن طويل فأعرض عليهم كتابين جديدين لهذا العالم الكبير: روح السياسة وروح الاشتراكية. فالكتب الأربع سلسلة أفكار واحدة كل كتاب يبرزها في صورة خاصة تمتاز بفائدتها عن البقية.

على هذا العزم أمسكت عن تلخيص الكتاب في مقدمة طويلة وقد أنزع إلى مثل ذلك إذا قدر لي الوفاء بالوعد وأتممت تمثل تلك المبادئ.

القاهرة

مارس سنة ١٩١٣

أحمد فتحي زغلول

مذهب المساواة في العصر الحاضر وروح التاريخ

نشوء فكرة المساواة وتقدمها– نتائج هذه الفكرة و ما يترتب على العمل بها– لها تأثيرها على الجموع في الوقت الحاضر، وهذا موضوع هذا الكتاب.. البحث عن أهم العوامل في تطور الأمم بوجه عام– هل لعناصر كل مدنية ، أعني النظامات والفنون والمعتقدات وغيرها روح نفسية خاص بكل أمة؟ تقلبات التاريخ ونواميسه الثابتة

تبنى مدنية كل أمة على بعض مبادئ أساسية وإلى هذه المبادئ ترجع أنظمة تلك الأمة وآدابها وفنونها. وتحتاج المبادئ في تكونها إلى زمن طويل كما أنها لا تندثر إلا بعد زمن طويل

وقد يكون المبدأ فاسدا غير أن فساده لا يظهر إلا لأهل العقول النيرة ولكنه يكون حقيقة ثابتة في نظر الكافة .. وتكر العصور وهي تتأثر به وتجري عليه. ومن هنا كان من الصعب تقرير مذهب جديد أو هدم مذهب قديم مقرر في الأذهان.

والناس يستمسكون عادة بالمذهب القديم كما يستمسكون بالآلهة وأن تقضي زمانهم.

غاب عن بعض الفلاسفة تاريخ الإنسان وتقلب ماهية قوته العاقلة وتغير قوانين تناسله الطبيعية فقاموا ينشرون في الناس فكرة المساواة بين الأفراد وبين الشعوب.

خلبت هذه الفكرة أذهان الجماعات فارتكزت في عقولهم ارتكازا قويا وآتت أكلها بعد زمن يسير فزعزعت أسس الجمعيات الأولى وولدت أعظم الثورات ورمت أمم الغرب في اضطرابات شديدة لا يعلم مصيرها إلا الله.

وعلى أن الفروق بين الفرد والفرد وبين الأمم بعضها وبعض من الأمور المسلمة فلا ينكرها أحد حتى أولئك الفلاسفة ولكنهم تعجلوا بالاعتقاد أنها ناشئة عن اختلاف التربية وأن الناس يولدون متساويين في الذكاء وطيب النفس وأن النظامات هي التي أفسدت عليهم ذلك. ومن يسهل عليه هذا الاعتقاد لا يصعب عليه إيجاد الدواء، لذلك قالوا أنه يتم بتغيير النظامات وتوحيد التعليم للجميع. وهكذا أصبحت النظامات ومسائل التعليم ذخر أهل مذاهب الحرية "الديمقراطية" وعدتهم في زماننا هذا وهي التي يرون فيها الوسيلة لإبطال الفروق التي تجرح مبادئ العصر الحاضر بعد أن صارت تلك المبادئ من المعبودات.

إلا أن العلم تقدم وأثبت بالبرهان بطلان مذاهب المساواة وأن الهواة التي أوجدها الزمان في عقول الأفراد والشعوب لا تزول إلا بتراكم المؤثرات جيلا بعد جيل. ودل علم النفس بقدر ما وصل إليه الآن كما أثبتت التجارب أن النظامات والتربية التي تليق بأفراد أو بأمة قد تضر بأفراد آخرين أو بأمة أخرى. لكن ليس من مقدور الفلاسفة إبطال مذهب إنساب في الأذهان يوم يبين لهم أنه غير صواب فالفكر بالنفوس يشبه النهر إذا طغى يفيض ماؤه من فوق الجسور ويغرق الحقول ويخرب

للزارع وما من شيء يعوق اندفاعه.

ما من عالم نفسي ولا من سائح ذي نظر ولا من سياسي مجرب إلا وهو يعتقد الآن خطأ ذلك المذهب الخيالي أعني مذهب المساواة الذي قلب الدنيا رأسا على عقب وأقام في القارة الأوروبية ثورة ارتج الكون منها وأذكى في القارة الأمريكية نار حرب الأجناس وصير جميع المستعمرات الفرنسية في حالة محزنة من الانحطاط ومع ذلك فقلما يوحد بين أولئك المفكرين من يقوم في وجهه بمعارضة ما.

ولم يدخل مذهب المساواة حتى الآن في دور السقوط بل هو لا يزال ينمو ويعظم فهو الذي يدعي الاشتراكيون أنه الوسيلة لإسعاد أمم الغرب مع أن الظاهر أنه يمشي بتلك الأمم إلى الاستعباد. وباسمه قامت المرأة تطلب المساواة بالرجل في الحقوق وفي التربية وقد نسيت ما بين النوعين من الفروق العظيمة في القوة العاقلة، وهي إذا فازت بمطلبها جعلت الأوروبي رجلا من الرحل لا يعرف له بيتا يأويه ولا عائلة يسكن إليها

أما الأمم فتكاد لا تهتم بما نشأ عن هذه المبادئ من الانقلابات السياسية والاجتماعية ولا بالتي ستحدثه في المستقبل مما هو أشد تأثيرا وأعظم ضرارا. وليس رجال السياسة بأكثر اهتماما من أممهم بهذه الحوادث لقصر حياتهم في مراكزهم في هذا الزمان ولأن السيطرة أصبحت للرأي العام فهو القاهر فوق الحكومات ولا مندوحة لأحد عن اتباعه.

ليس لمذهب من المذاهب من الأهمية إلا بمقدار تأثيره في نفوس المتخلقين به. أما ما فيه من صواب أو خطأ فمسألة نظرية لأنهم إلا

الحكماء. ومتى دخل مبدأ في أذهان العامة وجب الخضوع لنتائجه كلها صوابا كان المبدأ أو خطأ ..

ومن أجل ذلك نرى أهل مذهب المساواة يسيرون في تقريره من طريق النظامات والتعليم ويطمعون بذلك في تقويم مظالم النواميس الطبيعية وفي صبغ عقول زنوج "المارتينيك" وسكان "جوادلوب" و"السنغال" وعرب الجزائر وأهل آسيا بصبغة واحدة وهم فيما ذهبوا إليه واهمون. فمن المحقق أن خيالهم لن يتحقق. غير أن التجارب وحدها هي التي تبرهن على ما ينجم عن الخيالات من الشرور. أما العقل فليس في استطاعته تحويل الناس عن معتقداتهم.

والغرض من هذا الكتاب بيان الأخلاق النفسية التي تتكون منها روح الشعوب والبرهنة على أن تاريخ الأمة ومدنيتها منتزعان من هذا الأخلاق وعليه فإن سنبحث في كيفية تكون الأمم التاريخية وتربية مزاجها العقلي. ونريد بالأمم التاريخية الأمم العارضة بعد التاريخ وهي التي كونها الفتوحات والهجرة والتقلبات السياسية ثم نبين أن تاريخها مأخوذ من تكونها على هذا النحو ونشير إلى ما هو عليه أخلاق الأمم من الثبات والتقلب. وننظر هل الأمم وكذا الأفراد سائرون إلى التساوي أو هم سائرون إلى الضد بحيث يكثر التفاوت بينهم وتعظم الفروق، ونرى بعد ذلك هل عناصر كل مدينة وهي الفنون والنظامات والمعتقدات مظهر من مظاهر روح أمتها، ولذلك لا يتأتى نقلها من أمة إلى أخرى. وننهي بيان الحوادث القهرية التي ينطفئ بسببها نبراس المدنية ويعفو أثرها. ولا نتعرض في أبحاثنا هذه إلى التفصيلات إلا بقدر ما تمس إليه لبيان المبادئ وتقريرها إذ كل ذلك مما

أطلنا شرحه في عدة مؤلفات نشرناها عن المدنية الشرقية وهذا السفر الصغير إلا خلاصة ما قد فصلناه.

أخص ما استجليته من سياجاتي البعيدة في البلاد المختلفة هو أن لكل أمة مزاجا عقليا ثابتا كثبات خواصها التشريحية وهذا المزاج هو الذي تصدر عنه مشاعرها وأفكارها ونظاماتها ومعتقداتها وفنونها. وقد ظن "تو كفيل" وغيره من كبار المفكرين إن نظامات الأمم أصل في تطورها، ولكني على الضد من ذلك أرجو أن أقيم البرهان من أحوال الأمم التي بحث فيها "تو كفيل" على أن تأثير النظامات في المدنية ضعيف جدا وأنها في الغالب مسببات وقلما تكون أسبابا

ومما لا شبهه فيه أن تاريخ الأمم يتكون من عناصر شتى ومن تلك العناصر كثير من الحوادث الفردية والاتفاقات والعوارض التي كانت وكان يجوز أن لا تكون إلا أن هناك غير هذه الحوادث العرضية ونواميس كلية ثابتة تسير المدنية في كل أمة بمقتضاها وأهم هذه النواميس وأعمها وأثبتها هو المزاج العقلي. وما حياة الأمة أعني نظاماتها ومعتقداتها وفنونها إلا اللحمة الظاهرة من نسيج روحها. ولا يتسنى لأمة أن تغير نظاماتها أو معتقداتها أو فنونها إلا إذا غيرت روحها نعم ليس هذا هو الذي نراه مسطورا في التاريخ ولكنا سنبرهن بالسهولة على أن ما فيه مما يخالف نظرنا مبني على ظواهر لا حقيقة لها.

اجتهد المصلحون الذين يتعاقبون منذ قرن في تغيير كل شيء فأرادوا تغيير المعبودات والأرض وسكانها وهي إلى الآن ما نالوا إلا

يسيرا من طبائع الأمم التي ثبتها الزمان فيها.

ذلك لأن إدراك الفروق الثابتة بين المخلوقات وعلى الأخص أقرا النوع البشري ليس مما يتفق مع مذهب الاشتراكيين في هذا الزمان والعلم ليس بكاف وحده في إقناع رسل مذهب جديد بأنهم فيه واهمون وإن استمساك هم بآرائهم ناشئ من كونهم يتتبعون خطوات من سبقهم في البحث عن السعادة الدنيوية التي ما في الإنسان يرنوا إليها مذ خلق الله الأرض وما عليها. فهم يبحثون عما اختصت به بنات "أتيلهوهيسبرياس"[1]

وما أحلام المساواة بأقل قيمة من الأوهام التي جرى الإنسان خلفها قبل ذلك لولا أنها سترتطم بصخرة الفروق الطبيعية في الناس.

وإذا أضفت إلى هذه الفروق ما ينتاب المرء من الهرم ثم الفناء رأيت أن ذلك بعض ما ملئ به هذا الوجود من المظالم الطبيعية التي لا مناص للإنسان من حكمها.

---

(١)ثلاث بنات من هذين الأبوين يذكر تاريخ الخرافات إن كان لهن بستان من شجر التفاح ثمره من الذهب الوهاج ويحرسه مارد جبار قتله (هرقل)

الباب الأول

طباع الشعوب النفسية

الفصل الأول

روح الشعوب

طريقة الطبيعيين في تقسيم الأنواع – تطبيق هذه الطريقة على الإنسان – بيان العيب في تقسيم الشعوب البشرية الجاري عليه العمل حتى الآن – أساس التقسيم النفسي – المثال الوسط في الشعب – كيف يتوصل إلى معرفته بالنظر والاستدلال– العوالم النفسية التي يتكون منها المثال الوسط في الشعوب – تأثير الأجداد والأبوين –الطبائع النفسية العامة التي توجد في كل فرد من أفراد الشعب الواحد – تأثير الأجيال الماضية العظيم على الأجيال الحاضرة – أسباب هذا التأثير على التحقيق– كيف انتشرت روح المجموع من العائلة إلى القرية من القرية إلى المدينة ومنها إلى الإقليم –مزايا فكرة المدينة وماضرها – الأحوال التي يتعذر معها تكوين روح للمجموع – مثال إيطاليا –كيف أن الشعوب الطبيعية بادت وحلت محلها الشعوب التاريخية.

يبني الطبيعيون تقسيمهم أنواع الكائنات على صفات وخواص تظهر دائما في النسل بصورة واحدة. ونحن نعلم الآن هذه الخواص تتحول شيئا فشيئا بما يطرأ على النسل من التغيير غير المحسوس. لكن إذا نظرنا إلى الزمن التاريخي وحده جاز لنا القول بأن الأنواع لا تتغير لأن ما عرف من ذلك الزمن قصير وقد تمكن الطبيعيون بطريقتهم هذه من

تقسيم الإنسان إلى أنواع يمتاز بعضها عن بعض تمام الامتياز مستدلين على ذلك ببعض الفروق الجسمية التامة الوضوح كلون البشرة وشكل الجمجمة وحجمها. وغلب على الظن أن الجنس البشري مكون من أصول شتى. ويرى العلماء المحافظون على التقاليد الدينية أن هذه الأنواع هي القبائل والشعوب. ولقد أصاب بعضهم حيث قال إنه إن صح عند البعض أن الزنجي والقوقازي من فصيلة "القول ماسيين" فإن علماء التكوين يؤكدون بالإجماع أن هذين القسمين نوعان كبيران لا يجوز أن يكونا تولدا من زوجين اثنين ثم افترقا عن أصلهما شيئا فشيئا بمرور الزمن.

على أن الخواص الجسمانية ولاسيما ما أمكن أن يقع منها تحت البحث الآن لا تسمح بتقسم الجنس البشري إلا إلى أنواع عامة قاصرة جدا لأن الفروق لا تظهر إلا في الشعوب المتباينة في الخلقة تباينا عظيما كالبيض والزنوج والحمر مع أن من الأمم من تتشابه في أجسامها وخلقتها وتختلف في مشاعرها وعملها فتختلف بذلك أيضا في مدنيتها ومعتقداتها وفنونها وليس من المسلم جمع الإسباني والإنكليزي والعربي في نوع واحد لأن الفوارق العقلية الموجودة بينهم بادية لكل ناظر تقرأ مسطورة في كل صفحة من تواريخهم.

وبنى بعضهم تقسيم الأمم التي لا تظهر فيها الفروق الجسمانية على مميزات أخرى كاللغة والدين والجامعة السياسية إلا أن هذا التقسيم لا يحتمل البحث لظهور خطأه.

لكن إذا أعجزتنا الخواص الجسمانية واللغات والإقليم والجامعة

السياسية في تقسيم البشر فإن علم النفس يعيننا على الوصول إلى غرضنا في هذا الباب إذ يرشدنا إلى وجود بعض الصفات الأدبية والعقلية التي تؤثر في تطور الأمم مستوردة خلف النظامات والفنون والمعتقدات والتقلبات السياسية وإلى أن روح الشعب تتكون من مجموع تلك الصفات.

لكل شعب مزاج عقلي ثابت بمقدار ثبوت الخواص الجسمانية. نعم لا جدال في أنه يوجد بين المزاج العقلي وبين طبيعة المخ نسبة. غير أن العلم لم يبلغ من الارتقاء درجة تعرف بها حقيقة ذلك التركيب فلا يجوز لنا حينئذ أن تتخذه قاعدة لتقسيم الأنواع. على أن معرفة ذلك لن تؤثر في بيان المزاج العقلي الناشئ عنه كما يدلنا النظر عليه.

والصفات الأدبية والعقلية التي يتكون من مجموعها روح الأمة هي خلاصة ماضيها وميراث أجدادها وعلة حركتها التي تسير عليها. وقد يظهر أن تلك الصفات مختلفات اختلافا كبيرا في أفراد الأمة الواحدة إلا أن الاستقواء يؤيد أن أغلب أفراد تلك الأمة مشتركون في صفات نفسية عامة وثابتة ثبات صفاتهم الجسمية التي يمتاز بها نوعهم عن نوع أفراد أمة أخرى. والصفات النفسية كالصفات الجسمانية تتجدد مع النسل تجددا منتظما مستمرا.

ومن مجموع الصفات النفسية التي يشترك فيها أفراد كل أمة تتكون الصفة العامة التي يعبر عنها بخلق الأمة أو الخلق الملي.

وبعبارة أخرى يتكون المثال الوسط الذي يمكن اتخاذه عنوانا

للأمة. فإذا أخذنا ألف إنجليزي أو ألف فرنسي أو ألف صيني إلى حيثما وجدناهم شاهدنا بينهم اختلافا كبيرا. لكن أفراد كل جماعة يشتركون مع بعضهم في صفات عامة بمقتضى النسل الملي الخاص بهم. وشيوع ذلك فيهم يسهل تصور الرجل الفرنسي أو الإنجليزي أو الصيني في عمومه كما يتصور الطبيعيون بواسطة الصفات الجسمانية الفرس أو الكلب مثلا لأن الوصف الذي يصفون به هذه الحيوانات لا يندرج تحته إلا الفرس أو الكلب من حيث اشتراك فرد كل نوع مع غيره من أفراد ذلك النوع في صفاته الجسمانية العامة فلا يشمل متفرقات كل نوع أو آحاده المختلفة.

ويكفي أن تكون الأمة قديمة قدما يجعلها ممتزجة المجموع ليسهل على كل ناظر تمييز المثال الوسط من أفرادها. فإذا نزل الإنسان ببلد فأول ما يستوقفه من أهلها الصفات السائدة عليهم جميعا. والسبب في ذلك كثرة توارد تلك الصفات على الزائر.

وأما الفوارق الشخصية فإنها تفوقه لعدم تكرارها. وهذا هو السر في أن الإنسان يميز لساعته الإنجليزي أو الإيطالي أو الإسباني.

ويسهل عليه أن يضيف إلى الواحد منهم صفات عامة أدبية وعقلية هي تلك الصفات الأولية التي قدمنا ذكرها. وذكر "الإنجليزي" أو "الجاسكوني" أو "النورمندي" أو "الفلا مندي" يقابل في الذهن صورة خاصة من مثال معروف من قبل يسهل علينا وصفه وتعريفه. فإذا طبق هذا الوصف على فرد بذاته قد لا يكون جامعا بل قد يكون غير صواب لكنه إذا طبق على المجموع كان منضبطا تمام الانضباط. وطريقة بيان

المثال الوسط في أمة بذاتها تشبه في كونها غير تنبيهه تمام الشبه طريقة الطبيعيين في تقسيم الأنواع.

ولوحدة المزاج العقلي عند جمهور كل أمة أسباب بسيطة معروفة في علم وظائف الأعضاء فالواقع أن كل فرد ليس ثمرة والديه وحدهما بل هو أيضا ثمرة أمته أعني سلسلة أجداده. وقد أحصى أحد العلماء الاقتصاديين وهو موسير "شيسوان" أن الفرنسي يحمل في جسمه دم عشرين مليونا على الأقل من معاصري سنة ١٠٠٠ وذلك باعتبار أن في كل قرن ثلاثة أجيال وهو يقول أن جميع سكان كل ناحية أو إقليم يشتركون حتما في أجدادهم فهم مخلوقون من طينة واحدة وعليهم كلهم طابع واحد.

وهم على الدوام ينجذبون إلى ذلك المثال الوسط أي إلى تلك السلالة الطويلة الثقيلة التي هم آخر حلقة من حلقاتها. فنحن أبناء آبائنا وشعبنا معا وليس شعورنا وحده هو الذي يجعلنا نرى الوطن أما ثانية بل الشعور والخواص الجسمانية والوراثة معا هي التي تولد في نفوسنا تلك العاطفة.

وإذا أردنا أن نعبر عن العوامل التي يخضع الإنسان لها في حركته تعبيرا بسيطا قلنا أنها ثلاثة أنواع. أولها وأشدها تأثيرا عامل الأجداد. والثاني تأثير الوالدين. والثالث تأثير البيئة وقد ظن بعضهم أن هذا الأخير هو أشدها فعلا وهو في الحقيقة أضعفها. لأن البيئة وما يندرج تحتها من المؤثرات المادية والمعنوية التي تعمل في الإنسان مدة حياته وعلى

الأخص في زمن التربية لا تؤثر فيه إلا تأثيرا ضعيفا. وإنما يعظم أثرها إذا توالى بالتناسل زمنا طويلا.

وعلى ذلك فالرجل ابن أمته دائما مهما كان عمله. ومجموع الأفكار والمشاعر التي يأتي بها أفراد كل أمة يوم يولدون هي روح تلك الأمة وهي خفية في ماهيتها ولكنها ظاهرة ظهورا كليا في أثرها لأنها هي الحاكمة في الحقيقة على تطور الأمة. مثل الأمة كمثل مجموع الخليات التي يتكون منها الفرد الواحد. حياته حياة تلك الخليات يخطئها العد قصيرة: وحياة الذات التي تتكون منها أكثر دواما. فلها حياتان حياة ذاتية هي الخاصة بكل خلية وحياة كلية هي حياة الفرد التي يتكون من مجموعها. كذلك للفرد في الأمة حياة قصيرة هي حياته الذاتية وحياة طويلة هي حياة المجموع الذي يتألف منه ومن غيره. وهذه الأخيرة هي حياة الأمة التي ولدته والتي هو عامل من عوامل دوامها والتي هو على الدوام تابع لها.

وعليه اعتبار الأمة ذاتا دائمة مجردة عن الزمان وتلك الذات تتألف من أفرادها الأحياء الذين يشخصونها في زمن معلوم ومن سلسلة الأموات الذين هم أجدادها. لذلك إذا أردنا أن ندرك معنى الأمة الحقيقي ينبغي نمتد بها في الماضي وفي المستقبل معا.

وأشد الفريقين قوة هم الأموات لأنهم هم الأكثرون عددا وهم المؤثرون في عالم الحركاتاللا تنبيهيه الذي يخضع لسلطانه العقل والأخلاق في جميع المظاهر. فالأمة مسيرة بتأثير أمواتها أكثر مما هي

مسيرة بتأثير أحيائها. والأولون هم وحدهم الذين كونوها وهم الذين أوجدوا ما في الأحياء من الأفكار والمشاعر قرنا بعد قرن وإليهم ترجع أسباب حركة أهل العصر لأن هؤلاء لا يخضعون لمزاج أسلافهم المادي وحده بل هم متأثرون أيضا بما كان لآبائهم من المشاعر والأفكار. والحاصل أن الأحياء هم الأموات بلا جدال يشقون برذائلهم كما ينعمون بما كان لهم من الفضائل والمكرمات.

ولا تحتاج الأمة في تكوين مزاجها العقلي إلى زمن طويل كالذي تحتاجه الأنواع الحيوانية في تكوينها. إلا أن ما تحتاجه من ذلك ليس بالشيء القليل ودليله أن الأمة الفرنسية لم تتمكن من توحيد مشاعرها وأفكارها وإيجاد روح خاص بها إلا بعد عشرة قرون كاملة[٢]ومع ذلك لا يزال هذا التكوين ناقصا جدا.

وربما كان أهم أثر ترتب على الثورة الفرنسية تعجيل هذا التكوين بإجهازها على الموانع الناتجة من تعدد الجنسيات الصغيرة في قلب الأمة إذ كان منا "البيكاردي" و"الفلامندي" و"البورجونيوني" و"الجاسكوني" و"البروتوني" و"البروفنسي" وغيرهم من الطوائف التي كانت تتناسم البلاد الفرنسية في الزمن الماضي وكلها شعوب مختلفة

(٢)هذا الزمن وإن كان طويلا بالنظر إلى تاريخنا فهو قصير في الواقع لأنه لا يضم أكثر من ثلاثين جيلا والسبب في أنه كان كافيا على قلته لتقرير بعض الصفات العامة في الأمة هو أن العلة إذ دام فعلها ردها من الزمن في معلول بذاته أنتجت بالسرعة نتائج كبيرة فقد أثبت علماء الحساب أنه إذا دام فعل المؤثر الواحد زاد تأثيره بنسبة زيادة المتوالية العددية "١ : ٢ : ٣ : ٤ : ٥ وهكذا" وتضاعف الأثر بنسبة المتوالية الهندسية "٢ : ٤ : ٨ : ١٦ وهكذا"

لكل منها مشاعر وأفكار تميزه فلم يكن من السهل جعل الواحدة تامة. وهذا هو السبب في كثرة الخلف وقيام النزاع بيننا من أغلب الأوقات مما لا تعرفه أمة ذات وحدة كاملة كالأمة الإنجليزية. هناك امتزج السكسونيوالنورمندي والبروتوني فكونوا عنصرا متشابها فترى كل شيء في حياة الأمة متشابها وبسبب هذا الامتزاج تمكنت عند القوم الأسس الثلاثة التي يتكون روح الأمة منها وهي: مشاعر عامة، ومنافع عامة. ومعتقدات عامة. ومتى بلغت أمة هذه الدرجة من

فالعلل هي لوغاريتمات المعلومات كما أن خانات الشطرنج هي لوغاريتمات عدد حبات البر في مسألة تضعيف تلك الحبات بمدد خانات الرقعة وكذلك في المبالغ ذات الربح المركب يعظم نمو المال بحيث يصير عدد السنين لوغارتم رأس المال المتجمد وبمثل تلك الأسباب يمكن الدلالة على سير أغلب الحوادث الاجتماعية بمنحنيات هندسية تحكي ذلك التضعيف وقد توصلت في موضع آخر إلى بيان إن هذه المنحنيات يمكن تحليلها بواسطة عملية القطع المكافئ أو القطع الزائد ويرى موسيوشيسون إن ذلك يكون أسهل بواسطة العملية ذات الأس المتغير

الوحدة القومية اتحد جميع أفرادها بدون انتباه خاص على الجميع مرافقها المهمة وانتفت من بينهم أسباب الخلف الكبير.

وحدة المشاعر والأفكار والمعتقدات والمنافع الناشئة من كرور الدهور تقوي في الأمة وحدة المزاج العقلي وتزيد في ثباته وتحصل للأمة

سلطانا كبيرا. وبهذا بلغت روما أوج عظمتها في غابر الزمان وبه ارتفعت إنجلترا إلى أعلى سلم مجدها في هذه الأيام.

ومتى زالت هذه الوحدة انفرط عقد الأمة وكذلك سقطت صولة الرومان يوم أضاعوها.

كان لكل أمة في كل زمان نصيب من تلك المشاعر والأفكار والتقاليد والمعتقدات الموروثة التي يتكون منها روح المجاميع البشرية إلا أن نموها سار سيرا بطيئا. وكان وجود الروح أولا في العائلة ثم انتشر منها في القرية ثم في المدينة ثم في الإقليم ولم يعم جميع السكان إلا في أزمان قريبة منا هنالك وجدت فكرة الوطن بالمعنى المفهوم لنا في هذا العصر لأنها لا تصير واضحة إلا إذا تم تكوين الروح ولهذا لم تترق فكرة الوطن عند الإغريق إلى أبعد من فكرة المدينة ودامت مدائنهم في حرب مستمر لأن كل واحدة منها كانت أجنبية في الواقع عن البقية كذلك لم تعرف الهند منذ ألفي عام غير وحدة القرية فعاشت من ذلك الحين تحت حكم الأجنبي تقوم فيها ممالكه بسهولة كما يدول بسهولة.

فكرة المدينة كوطن خاص ضعيفة من حيث القوة الحربية ولكنها كانت دائما شديدة الأثر في ارتقاء الحضارة ومع كون روح المدينة أصغر من روح الوطن فهي أغزر مادة وأعظم ثمرة فلقد دلتنا أثينا في الزمن القديم وفلورانس والبندقية في الأزمان الوسطى على درجة الحضارة والرقي التي تصل إليها الجموع البشرية الصغيرة.

ومتى طال الزمن على المدن الصغيرة والأقاليم الصغيرة وهي مستقلة عن بعضها تتولد في كل منها روح ثابتة يتعذر معها غالبا مزجها بعضها ببعض ليتكون في مجموعها روح ملي واحد.

وإذا تيسر ذلك أحيانا بأن لم يكن هناك من الفوارق الكبيرة ما يحول دون تحقيقه فهو لا يتم في أيام بل لابد له من قرون عدة ولابد للقيام بمثل هذا العمل من أمثال "ريشايو" و"بسمارك" على أنهم لا قبل لهم به إلا إذا هيأته الأيام. ولقد يتأتى لبلد مثل إيطاليا أن تصير فجأة دولة واحدة بتأثير العوامل الاستثنائية إلا أن من الخطأ الاعتقاد بأنها تنال بهذا روحا مليا. وأنا لا أزال أرى في إيطاليا هذا "البييموني" وذاك "الصقلي" وذلك "البندقي" و"الروماني" وغيرهم ولكني لا أرى "الإيطالي".

كل أمة دخلت في ميدان الحضارة وأصبحت ذات تاريخ قديم يجب اعتبارها أمة صناعية لا أمة طبيعية مهما كانت حالها أعنى سواء اتحدت عناصرها أم لا. إذ الأمم الطبيعية لا يكاد يكون لها وجود في العصر الحاضر اللهم إلا في البلاد المتوحشة هناك يتيسر العثور على أمم خالية من الخليط. وأما أكثر الأمم المتحضرة الأن فأمم تاريخية.

وليس من موضوعنا أن نبحث في أصل الأمم فسواء عندنا كونتها الطبيعة أو التاريخ. وإنما الذي يهمنا منها هي الصفات التي حدثت لكل واحدة منها بمرور الزمان الطويل عليها واستقرت عدة قرون في أحوال واحدة وتجمدت بالتناسل جيلا بعد جيل وأصبحت ثابتة ثباتا كبيرا وصلحت لتمييز كل أمة عن أختها.

الفصل الثاني

حدود تغيير أخلاق الأمة

تغير خلق الأمة هو القاعدة الظاهرة الثبات – سبب ذلك – ثبات الخلق الأصلي وتغير الخلق الثانوي – مقابلة الصفات النفسية بالصفات الحيوانية الثابتة والصفات المتغيرة – في أن تأثير البيئة والحوادث والتربية قاصر على الصفات النفسية الثانوية – تطور الصفات – أمثلة لذلك في أزمان مختلفة – رجال الهول الأكبر – ماذا كان يكون شأنهم في زمن غير زمانهم –كيف أن الصفات القومية تبقى بعد الثورة – أمثلة مختلفة – الخلاصة.

العام النظر في تطور حضارة الأمم هو الذي يدلنا على درجة ثبات مزاجها العقلي. وأول ما خيل للباحث أن القاعدة العامة في ذلك هي التغيير لا الدوام. فمن لم يقرأ التاريخ بإمعان يظهر له أن روح الأمة قابل في بعض الأحيان لتغير سريع والكافة يحسبون أن هناك فرقا كبيرا بين صفات الإنجليزي في عهد "كرا مويل" وصفاته في العصر الحاضر وكذلك بين الإيطالي الحاضر ذي الحذر والحيلة وبين الإيطالي المندفع المفترس الذي يصفه "بينفينتوسلليني" وعندنا ما هو أقرب من ذلك أريد فرنسا. فكم من تغير ظاهري حدث في صفاتنا منذ عدد قليل من القرون بل من السنين. وأي مؤرخ لم يشر إلى الفرق الموجود بين خلق الأمة في

القرنين السابع عشر والثامن عشر. وكذلك يشاهد فرق عظيم في أيامنا بين وحوش العهد[٣] وعبيد نابليون الطائعين وأولئك هم هؤلاء ولكن يخيل أنهم بدلوا بأخرين في بضع سنين.

ولكي نوضح أسباب هذه التقلبات ينبغي أن نذكر القراء بأن النوع النفسي يتركب كالنوع الجسماني من صفات أساسه ثابتة قليلة العدد وأن بجانب هذه الصفات صفات أخرى ثانوية متغيرة وقابلة للتحول. فالثور يتغير ظاهره بالعلف والزهر بتكيف بفعل البستاني حتى تغيب حقيقته عن غير ذي الخبرة والنور والزهر لا يزالان كما كانا من حيث صفات النوع الأساسية وإنما كان التغير في صفاته الثانوية. ولا تزال الصفات الأولى ميالة على الدوام إلى الظهور في كل نسل جديد بالرغم من جميع الحيل التي يعالج النوع بها.

كذلك المزاج العقلي صفات أساسية ثابتة كصفات الأنواع الجسمانية. وله أيضا صفات ثانوية تتغير بسهولة وهذه الأخيرة هي التي تتأثر بفعل البيئة والحوادث والتربية وغير ذلك من العوامل.

ولا يعيين عنا أمر مهم في هذا الموضوع ذلك أن للمزاج العقلي مقدورات وإن شئت فقل قابليات أخلاقية لا تظهر في كثير من الأوقات لعدم ملائمة الأحوال لظهورها. فإذا اصطلحت تلك الأحوال ظهر من خلالها شخصية جديدة في الأمة لكنها عرضية لا تدوم إلا وقتا محدودا.

---

(٣) يريد فريقا من الفرنسيين أداروا الحكومة زمنا أيام الثورة وكانوا قساة

لذلك شوهد في أيام المحن الدينية والسياسية الكبرى أن الأمة ظهرت بمظهر جديد يخيل للناظرين أنه ناشئ من تغير عظيم في خلقها الملي كأن انقلابا حصل في أخلاقها وأفكارها وحركتها إلا أنه عرضي ما لبث أن زال والذي خيل في بادئ الأمر كان طارئا كما يضطرب وجه البحيرة الهادئة من فعل العاصفة ولا يدوم هذا الاضطراب زمنا طويلا.

والقابليات التي ظهرت في بعض الأزمان بفعل الحوادث الاستثنائية هي التي مثلت لنا الذين لعبوا دورا مشهودا في الانقلابات السياسية والدينية كأنهم مخلوقين من طينة أخرى فكانوا في نظرنا عمالقة ونحن أبناؤهم الفاسدون. وما كانوا إلا رجالا مثلنا صادفتهم حوادث حركت فيهم تلك القابليات التي نشترك معهم فيها. مثال ذلك غيلان "الهند" الذين وقفوا في وجه أوروبا المدججة فقد بلغت منهم قساوة القلب إلى أنهم كانوا يقدمون خصومهم إلى المقصلة لأدنى خلف بينهم وهم في الحقيقة أناس من أواسط الأمة الطيبين أولي السكينة مثلنا ولولا الزمان لوجدناهم مطمئنين إلى صناعتهم أو تجارتهم أو زراعتهم أو الحرفة التي كانوا فيها من قبل يعملون. لكن حوادث خارقة أثارت في أمخاخهم بعض الخلايا التي كانت هادئة في الزمن العادي فبرزوا في تلك الصورة الهائلة التي يقتصر السلف على إدراكها ولو أن "روبسبيير" وجد بعد مائة عام من زمنه لكان قاضيا من أتقى قضاة الصلح صديقا لشماس قريته وكذلك "فوكيهتينفيل" كان يكون قاضيا للتحقيق يطارد الجناة ويشد الخناق على المجرمين بصرامة أكبر وقساوة أعظم مما كان عليه أقرانه و "سان جوست" كان يكون معلما ماهرا في المدرسة ذا حرمة لدى الرؤساء

فخورا بنيشان المجمع العلمي الذي كان يحوزه بلا محالة. وحتى لا يكون في نفس القارئ شك من صحة هذه الفرضيات يكفي أن نلفته إلى ما فعل نابليون بأولئك الوحوش الذي لم يمهلهم الزمان ليقتل بعضهم بعضا فقد كان من أمرهم معه أن صار أغلبهم عمالا في أقلام كتاب المصالح ومحصلين وقضاة ومديرين لأن الأمواج التي هاجمتها العاصفة التي أشرنا إليها كانت قد سكنت وعادت البحيرة المضطربة إلى هدؤها.

لا تتغير صفات الأمة الأساسية حتى في أشد أوقات الاضطراب والمحن التي تظهر فيها الأمة بمظهر التغير الكلي في شخصيتها وغاية ما هناك أن تلك الصفات تبدو في ثوب غير ثوبها الأول فلما أراد أهل الثورة أن يقضوا على طريقة الحكم السابق وضعوا للأمة نظاما قبضت فيه السلطة العليا على جميع اختصاصات الحاكمين فكان روح نظامهم هذا متفقا مع روح النظام الاستبدادي المبني على الأثرة وجمع السلطة في اليد العليا وهو الذي امتزج بروح فرنسا في عهد ملوكها المطلقين مدى خمسة عشر قرنا.

ما من ثورة قامت في البلاد اللاتينية إلا وظهر خلفها ذلك النظام العتيد وبعبارة أخرى ذلك الميل التأصل العضال أريد ميل النفوس إلى الخنوع لحاكم قادر. والسبب في ذلك ثبات جذور ذلك الميل في النفوس حتى أصبح جزءا من روح الأمة. ولولا هذا الروح لما ساد نابليون ببهاء الفتوحات التي جرت على يده.

ألا ترى أنه لما استعاض الجمهورية بسيطرتهأخذت صفات الأمة

الوراثية تظهر كل يوم بقوة أشد وكان لابد من ذلك فلو لم يقم بالأمر حينئذ ذلك الضابط المدرب لقام به واحد من الأفاقين وبعد مضي خمسين عاما وارث اسمه فما ظهر في الناس حتى صبو إليه أجمعين والتفت حوله أمة تعبت من الحرية وتلهفت على الاسترقاق. إذن ليس شهر "بريمير"[٤] هو الذي أقام صرحنابليون لكنه روح أمته التي أقبلت راكعة أمام قدميه الحديتين[٥].

والسبب في أن أثر البيئة في الإنسان يظهر عظيما هو كون محله الصفات الثانوية الوقتية أو هي القابليات الأخلاقية التي سبقت الإشارة إليها، فالتغيير ليس جوهريا بدليل أن أخلد الناس إلى السكينة إذ عضه الجوع أصبح لا يبقي على شيء ولا يحجم أمام أية جريمة كانت بل ربما افترس مثيله ولا يقال مع ذلك أن طبعه الأصلي تبدل بطبع جديد.

---

(٤)اسم الشهر الذي حصل فيه الانقلاب

(٥)كتب (باين) يقول: "ما تحرك حركته الأولى حتى خر الفرنسيون ركعا طائعين وأقاموا على ذلك كما يقيم المرء على حاله الفطري فأما الأصاغر من جند وفلاحين فقد أشبهوا الحيوان في إخلاصه وأما الأكابر من أولى الرتب وأرباب الوظائف فإنهم استذلوا ذلة البيزنطيين وما قاوم الجمهوريون أبداً بل أنه أتخذ من بين صفوفهم أصلح الوسائل لتأييد سلطانه فكان له منهم الأعيان في مجلسهم والنواب في ندواتهم ومستشارو الدولة وقضاة المحاكم والولاة من جميع الطبقات. أدرك من أول نظرة في بقايا حريتهم ومساواتهم ما فيهم من الميل إلى السلطة وحب الاستعلاء والتفوق حتى وهم مسودون وعرف جشعهم للمال وانطباعهم على اللذات سيان في ذلك العضو في جمعية سلامة الأمة والوزير والمدير وحكام الأخطاط فالكل رجل واحد في ثوبين ثوب فطري وثوب مزركش"

إذ نتج عن الحضارة في الأمة أن صار أفرادها في ثروة طائلة ومالوا إلى اللذات والشهوات التي هي أثر الغنى وتولد في الآخرين حاجات كبيرة من دون أن يكون لهم من الوسائل ما يسدونها به،إذا تم ذلك استاء الناس وتولاهم الحرج وتأثرت حركة الأمة وحدثت انقلابات من صفوف شتى لكن صفات الأمة الإسلامية تبقى بادية وسط الاستياء وتلك الانقلابات بدليل أن إنجلترا الولايات المتحدة أظهروا في حروبهم الأهلية ما امتازوا به من المثابرة وقوة العزيمة كما هم يظهرون ذلك الآن في تخطيط المدن وإنشاء المدارس الجامعة والمصانع الكبرى فالصفة لم تتغير وإنما الذي تغير هو محل ظهورها.

والخلاصة إننا إذا نظرنا إلى جميع العوامل التي لها تأثير في مزاج الأمة العقلي رأينا ذلك التأثير دائما في الوجهة الثانوية منه إذا دام المؤثر زمنا طويلاً، ولسنا نذهب إلى أن صفات الأمم النفسية غير قابلة للتغيير، بل الذي نريد تقريره هو أن تلك الصفات على درجة كبيرة من الثبات وأن مثلها في ذلك مثل الصفات الجسمانية وأن هذا الثبات هو العلة في بطء تجول خلق الأمة في بطون الليالي والأيام.

الفصل الثالث

الطبقات النفسية للأمم

تقسيم الأمم النفسي كالتقسيم الطبيعي مبني على بعض صفات أصلية ثابتة – في بيان تقسيم الأمم النفسي – الأمم الأولى – الأمم الدنيا الأمم الوسطى – الأمم العليا "الراقية" – العناصر النفسية التي بنى عليها هذا التقسيم – الخلق – الأدب – في أن الصفات الأخلاقية ثابتة وهي العنصر غير القابل للتغيير في الأمة – شأن تلك الصفات في التاريخ – السبب في أن الأمم المختلفة لا تتفاهم ولا تتأثر الواحدة منها بالأخرى – السبب في استحالة غرس حضارة أمة راقية في أمة واطئة

إذا راجعنا في أحد كتب التاريخ الطبيعي قواعد تقسيم الأنواع علمنا أن الصفات الثابتة أي الأساسية التي يبني عليها ذلك التقسيم قليلة العدد جداً يكفي بعض أسطر لسردها. وسببه أن العلماء لا يعتمدون في ذلك إلا على الصفات التي لا تتغير ولا يلتفتون إلى الصفات الثانوية مهما كثرت وكانت منتزعة منها كذلك الحال في صفات الأمم النفسية فإذا بحثنا في التفاصيل وجدنا فروقاً كثيرة بين فرد وآخر وأمة، وأمة. وإذا رجعنا إلى الصفات الأولية وحدها رأيناها قليلة. وسنأتي بأمثلة توضح كيف أن تلك الصفات القليلة هي التي تؤثر في حياة الأمم.

ولما كان بيان قواعد تقسيم الأمم النفسية متوقفاً على البحث في

الأحوال النفسية لكل أمة وذلك يقتضي وضع مؤلفات كثيرة فقد اقتصرنا هنا على بيان تلك القواعد بوجه عام.

تنقسم الأمم من حيث صفاتها الأخلاقية العامة إلى أربعة أقسام: الأمم الأولى – الأمم الدنيا – الأمم الوسطى – الأمم الراقية.

والأمم الأولى هي التي لا أثر للتعليم عندها بل بقيت في طورها القريب من الحيوانية وهو الطور الذي قطعه أجدادنا في دورهم الحجري القديم ويمثل لتلك الأمم في هذه الأيام بأهل "فيوجيان"[٦] وأستراليا.

ويلي تلك الأمم، الأمم الدنيا. وأخص مثال لها الزنوج وفيهم بصيص حضارة ولكن ليس عندهم أكثر من بصيص وتاريخهم يدل على أنهم لم يتمكنوا من الارتقاء إلى أكثر من حضارة بربرية وإن ورثوا في بعض الأحوال عن غيرهم حضارة أرقى كما وقع لأهل "دومينيج"[٧].

ثم الأمم الوسطى وهي الصين واليابان والمغول والأمم السامية. وهذه الأمم بلغت من الحضارة درجة راقية لم يفتهم فيها غير الأمم الأوروبية الراقية فلا يندرج فيها إلا الأمم الهندوسية الأوروبية فهي وحدها التي أظهرت مقدرة على الاختراعات في الفنون والعلوم والصناعة سواء كان ذلك في الزمن القديم زمن اليونان والرومان أوفى هذا وهي التي أوصلت الحضارة إلى درجة ارتقائها الحالي وهي التي اكتشفت البخار والكهرباء.

---

(٦)أحدى جزر الرأس الأخضر بالمحيط الأطلنطي وسكانها ١١,٠٠٠ نسمة

(٧)جزيرة أخرى في المحيط المذكور

وأقل هذه الأمم ارتقاء كالهندوس على الأخص بلغت من الفنون وعلوم الأدب والفلسفة حداً لم تتمكن أمم المغول والصين ولا الأمم السامية من اللحاق بهم فيه.

تمتاز هذه الأقسام الأربعة عن بعضها بحيث لا يخطئ أحد في تمييزها فإن التباين العقلي بين بعضها والبعض الآخر واضح جلي. وإنما الصعوبة تبدو عندما يراد تقسيم أمم كل قسم إلى أنواع وفروع. فالإنجليزي والإسباني والروسي من الأمم الراقية ولكنا نعلم الفرق عظيم بين هؤلاء وهؤلاء.

ومن أراد استجلاء هذه الفروق ينبغي له أن يقرر حقيقةخلق كل أمة عل حدتها. وسنفعل ذلك في أمتين على سبيل التمثيل لهذه النظرية ولبيان أهمية تأثيرها مكتفين في ذلك ببيان حقيقة العناصر النفسية الرئيسية التي توصلنا إلى التفرقة بين بعض الشعوب والبعض الآخر.

مما يشاهد دائما في الأمم الأولى والدنيا عدم قرتها على التعقل مع تفاوت في ذلك. وأعنى بذلك قدرة الذهن على جمع الأفكار المتحصلة من المحسوسات السابقة أو الألفاظ التي تدل عليها ومقابلتها بالأفكار المتحصلة من المحسوسات الحالية واستجلاء الفرق بين الحالين، ولسنا في حاجة إلى أن نذهب إلى المتوحشين لنلتقي بتلك الأمم الأولى شبها كاملا. وسبب عدم القدرة على التعقل عند تلك الأمم سرعة التصديق وفقدان ملكة النقد فقداناً تاماً بخلاف الإنسان الراقي فإن ملكة جمع الأفكار واستخلاص نتائجها قوية فيه وملكة النقد وتحرير المعقول نامية للغاية.

كذلك نرى ملكة التنبه والتأمل ضعيفة جداً في الأمم الدنيا وملكة التقليد نامية جداً. ومن عاداتهم استنتاج النتائج الباطلة العامة من الجزئيات وهم ضعاف في النظر وفي استجلاء نتائج الاستقراء وأخلاقهم وعدم تبصرهم عظيم وقاعدة عملهم ما يعرض لهم من الإلهام وقت العمل فمثلهم مثل "عيسوي"[٨].

يبيعون عن طيب خاطر حقوق البكورة الآجلة بطبق من العدس العاجل. إنما يخطو الإنسان خطوة كبيرة في سبيل رقية متى تمكن من رد منفعة عاجلة لمنعة آجلة وجعل لنفسه غرضا ثم أقام في طلبه.

وعدم القدرة على تصور النتائج البعيدة المترتبة على الأعمال والميل إلى الاسترشاد بإلهام الساعة التي يوجد المرء فيها يقضيان عليه كما يقضيان على الأمة كلها بالبقاء في حالة التأخر. وهما لا يخرجان من تلك الحال إلا إذا تمكنا من الحكم على ميولها وبعبارة ثانية إذا اكتسبا إرادة يتمكنان بها من امتلاك نفسيهما هنالك تصل الأمة إلى فهم معنى النظام وضرورة التضحية في سبيل مطلب معروف والصعود على سلم الحضارة ولو أني سئلت عن مقياس يقاس به مستوى كل أمة بالنسبة لغيرها منذ عرف التاريخ لأشرت إلى درجة اقتدار كل أمة على حكم نزعاتها اللاتينية ولقلت أن الرومان في العصور الخالية والإنجليز والأمريكان في الزمن الحاضر هما الأمتان اللتان بلغت فيهما هذه المقدرة منها ها وقد كان لها شأن كبير جداً فيما وصلا إليه من الارتقاء والعظمة.

---

(٨)هو من ولد إسحاق ولد سنة ١٨٣٦ قبل المسيح وكان أكبر أخواته ذهب للصيد ذات يوم فعضه الجوع فالتقى بأخيه وكان يحمل طبقا من العدس فاشتراه منه مقابل تنازله عن حقوق الأولوية التي له بمقتضى كونه بكر أبيه

قلنا أن المزاج العقلي نتيجة مجموع العناصر النفسية التي قدمنا ذكرها ودرجة نمو ذلك المجموع وإن ذلك المزاج هو الوسيلة في تمييز الأفراد والأمم.

ومن تلك العناصر النفسية ما هو راجع الخلق ومنها ما هو راجع إلى الذكاء..

فأما الأمم الراقية فتفرق عن غيرها في الأمرين. ولكن الفارق الأساسي بين أنواع هذه الأمم الراقية هو الخلق. تلك نظرية أهمية اجتماعية كبرى. لذلك وجب أن نوفي القول في بيانها يتكون الخلق من اجتماع بعض العناصر المخصوصة وامتزاجها ببعضها. وتلك العناصر هي التي جرى علماء النفس في هذا العصر على تسميتها بالمشاعر. وأهم المشاعر في تكوين الخلق المثابرة وقوة العزيمة والقدرة على حكم النفس وكلها ملكات راجعة إلى الإدارة. ونذكر أيضاً من تلك العوامل الأساسية الأدب وإن كان هو فينا خلاصة مشاعر مختلفة. ونريد بالأدب ذلك الاحترام الوراثي للنواميس التي تقوم عليها حياة الأمة فمعنى كون الأمة ذات أدب أن لها قواعد ثابتة تسير عليها وأنها لا تنفك عن مراعاة تلك القواعد. وهذه القواعد تتغير بتغير الأزمان والأمكنة. ومن ذلك يظهر أن الأدب متغير وهو في الواقع كذلك. وإنما الذي يجب له هو أن تلزمه الأمة الواحدة في الزمن المعين. والأدب ابن الخلق فهو لا يثبت إلا إذا صار وراثيا أعني غير تنبهي. وعظمة الأمة تابعة على وجه العموم لدرجة ارتقاء الأدب فيها.

وللصفات العقلية قابلية للتغير بتأثير التربية. وأما الصفات الأخلاقية فيكاد أن لا يكون للتربية أثر فيها وإذا أثرت ففي ذوي الطباع الهينة أي الذين لا إرادة لهم فهم يميلون إلى حيث يوجهون. ويكثر وجود هذه الطبائع الهينة في الأفراد ولكنها قلما توجد في أمة بأكملها. وإذا شوهدت في أمة من الأمم فإنما يكون ذلك في أيام سقوطها.

تنتقل الاكتشافات العقلية بالسهولة من أمة إلى أخرى وأما آثار الخلق فلا تتعدى أمتها. لأنها العناصر الأساسية الثابتة التي يتميز بها المزاج العقلي في كل أمة راقية. ومن هنا كانت الاكتشافات العقلية ملكا شائعاً للإنسان أني وجد. وأما آثار خلق كل أمة طيبة كانت أو رديئة فخاصة بالأمة التي هي فيها ومثل الخلق مثل الصخرة لا تؤثر فيها الأمواج على تعاقب الأيام إلا قليلا في حاقتها والخلق شبيه بالعنصر الثابت لكل نوع من أنواع الكائنات كمسبح الأسماك ومنقار الطير وسن الحيوان المفترس خلق كل أمة هو على تطورها في حياتها وهو الذي يقرر مستقبلها وهو موجود على الدوام خلف العوامل التي فرضها الناس سببا لأعمالهم فقالوا بالاتفاق وهو لا حول ولا قوة وبالرحمة وهي أمر خيالي وبالمقدور المحقق وهكذا مما اتخذته الأمم ناموساً في حياتها على حسب اختلاف المعتقدات.

تأثير الخلق في حياة الأمم عظيم. وأما تأثير العقل فضعيف على تفاوت فيه. ولقد كان الزمان أيام سقوطهم ذوي عقول أرقى من عقول أجدادهم القاهرين ولكنهم سقطوا لأنهم فقدوا صفاتهم الأخلاقية فأضاعوا المثابرة والعزيمة والجلد الذي لا يعرف الوهن وفقدوا القدرة

على التفاني في نصر المطلب واحترام القوانين إلى حد التقديس. وتلك الصفات هي التي كانت السبب في عظمة آبائهم الأولين.

الخلق هو الذي يمكن سنين ألف إنجليزي من إخضاع مائتين وخمسين مليوناً من الهنود وكثير من هؤلاء في مستوى واحد معهم من حيث العقل وبعضهم يفوقونهم جداً في الفنون الراقية وغور المباحث الفلسفية والخلق هو الذي جعلهم على رأس مملكة استعمارية هائلة لم يعرف التاريخ نظيراً لها حتى الآن.

الخلق لا العقل هو الذي تقوم عليه الجمعيات البشرية وتؤسس الديانات وتبنى الممالك وهو الذي يجعل الأمم تحس وتعمل وما كان كسب الأمم كثيراً من شحذ الأذهان والتعمق في التفكير[٩].

المزاج العقلي هو الذي يرشد الأمة إلى تكوين فكرتها في الوجود وفي

(٩)السبب في شدة ضعف علماء النفس الذين اتخذوا هذا العلم صناعة لهم وقلة آثارهم هو على الأخص قصرهم مباحثهم على المسائل العقلية وانصرافهم عن البحث في المسائل الأخلاقية وكأني لا أعرف ممن أشار إلى أهمية الخلق وكونه أصلا في تكوين مزاج الأمم العقلي غير موسيو "بولهان" في رسالة "الأخلاق" وموسيو "ريبو" في وريقات جاءت لسوء الحظ قصيرة جداً. قال هذا العلامة الأستاذ بمدرسة فرنسا "إنما الذكاء صورة ثانوية من صور تطور العقل والعنصر الأساسي هو الخلق ونتيجته الأولى إذا نمى نمواً كبيراً إعدام الخلق غالباً فينبغي لبيان أحوال الأمم النفسية ومقارنتها ببعضها إن نديم البحث في الخلق كما ذهبنا إليه هنا لأن أهمية هذا العلم لا تخفى فهو مصدر تاريخ الأمم ومرشد سواسها ولولا أنه لا ينال في المعامل الكيماوية ولا يوجد في بطون الكتب إنما ينال بالأسفار الطويلة والوقوف على أحوال الأمم لكان من العجب العجاب أن العلماء لم يشغلوا بتدوينه إلى اليوم بل ليس هناك ما يدلنا على قرب اشتعال مصنفي علم النفس به. فإنهم يتركون الآن شيئاً فشيئاً ما عكفوا عليه من قبل ويقصرون أبحاثهم على مسائل تتعلق بعلمي التشريح والفسيولوجية"

الحياة وعلى حسب صورة ذلك عندها تختط لنفسها طريقا تسير فيه وسنأتي فيما بعد بأمثلة تقرب ذلك إلى الأذهان. كل إنسان يتأثر بالأشياء الخارجة عنه تأثراً خاصاً به فيتولد فيه من ذلك شعور خاص وفكر خاص ويندفع إلى العمل على نحو خاص مخالفاً في هذا كله ما يجري عليه غيره مما يفترق عنه في مزاجه العقلي. وينتج من ذلك أن من افترقوا في أمزجتهم العقلية لا يتأتى لبعضهم أن يدرك كنة بعض.

واختلاف الأخلاق هو علة استمرار التنافر بين الأمم ومن التعذر استفادة شيء من التاريخ إذ لم يكن طالب الفائدة عالماً أن الأمم المختلفة لا تشترك مع بعضها في الشعور ولا في العقول ولا في العمل وأنه لذلك لا يتأتى لبعضها أن يفهم بعضاً. نعم في لغات الأمم المختلفة ألفاظ متشابهات يظنونها مترادفات غير أن تلك الألفاظ على اشتراكها تحدث في نفس كل أمة مشاعر وأفكاراً ومعقولات غير ما تثيره من ذلك في الأخرى. ولا يعرف الإنسان مقدار الفرق العظيم بين أفكار الأمم المختلفة إلا إذا طالت عشرته لقوم غير قومه حتى ولو لم يعرف منهم إلا من تكلم لغته وتربى تربيته.

ويمكن الوقوف على ذلك أيضاً من غير اغتراب بالمقارنة بين الرجل المتحضر وبين المرأة المتحضرة ومعرفة الفرق العظيم بينهما من الجهلة العقلية فمهما ارتقت درجة المرأة في التعليم يرى الباحث أنهما قد يشتركان في المصالح ويتحدان في المشاعر ولكنهما لا يتفقان مطلقا في تسلسل المعقولات وقد يتحادثان قرونا ولا يتفقان لأن لكل واحد منهما مزاجاً يخالف مزاج الآخر مخالفة تامة فلا يتأثر بالأشياء الخارجة عنه كما يتأثر رفيقه. ولو لم يكن بينهما من الفروق إلا اختلاف معقوليهما لكفى بذلك مانعاً من الاتفاقذلك افرق العظيم في المزاج العقلي هو الذي يوضح علة عدم نجاح

الأمم الراقية في نقل حضارتها إلى أمم أدنى منها.

قال أصحاب سيادة العقل الصرف أن التعليم ينجح في هذا السبيل ولا يزال قولهم مرعياً لدى الكافة أعرف لهؤلاء الفلاسفة مذهباً أسوأ تأثيراً من هذا الرأي ولا أشد ضرراً نعم يجوز أن يحرز الأفراد في سلم الإنسانية جميع معلومات الأوروبي كلها بما قد يوجد فيه من قوة الحافظة التي اختص بها الأفراد الأدنون وليست هي من مميزات الرجال ومن المسلم أن نيل الزنجي أو الياباني الشهادة الثانوية أو رتبة المحاماة أمر ميسور ولكنه لا ينال بذلك الأطلاء سطحيا لا تأثير له في مزاجه العقلي وأما كيفيات التفكير والمعقولية وعلى الأخص أخلاق الغربيين فليس في قدرة التعليم مهما كان أن يحصلها له لأنها لا تنال إلا بالوراثة ولذلك الزنجي أو هذا الياباني أن ينال جميع الشهادات الممكنة لكنه لن يرقى مطلقاً إلى صف الأوروبي العادي. ففي عشر سنين يمكن تلقينه التعليم الذي يتلقاه إنجليزي تام التهذيب ولكن ألف سنة قد لا تكفي لصيرورته إنجليزي حقيقي أعني رجلاً يعمل كما يعمل الإنجليزي في جميع أطوار الحياة. وعليه إذا غيرت أمة بسهولة لغتها أو نظامها أو معتقداتها أو فنونها فإنما يكون التغير سطحياً ولا يكون جوهرياً إلا إذا تيسر لها أولاً تغيير روحها.

الفصل الرابع

درجة الفروق بين الأفراد والأمم

كلما ارتقت الأمة عظمت الفروق بين أفرادها والبعض الآخر – في أن أفراد الأمم الدنيا متساوون في القوة العاقلة – لأجل معرفة الفروق بين الأمم يجب أن تكون المقارنة بين طبقاتها العليا لا الوسطى – في أن تقدم الحضارة يزيد في الفروق التي بين الأفراد والتي بين الأمم – نتيجة هذا الفارق – في الأسباب النفسية التي تمنع اتساع هذا الفارق – في أن الفرق عظيم جدا بين أفراد الأمم الراقية من حيث القوة العاقلة وضعيف جدا من حيث الخلق – في أن الوراثة تميل دائما بالأفراد الراقية إلى المثال الوسط في الأمة – في المشاهدات التشريحية التي تؤيد تدرج الفروق النفسية بين الأمم وبين الأفراد وبين الأنواع "الذكر والأنثى".

لا تمتاز تلك الأمم الراقية عن الأمم الدنيا بالصفات النفسية والجسمانية وحدها بل تمتاز عنها أيضا باختلاف العناصر التي تدخل في تكوين كل أمة. فمستوى العقل يكاد يكون واحداً عند جميع أفراد الأمم الدنيا ذكوراً وإناثاً وتشابههم في ذلك يعطي مجموعهم مسحة المساواة التامة التي يحلم بها الاشتراكيون في هذا الزمان.

وأما عند الأمم الراقية فالقاعدة هي اختلاف الأفراد وكذا النوع اختلافاً كبيراً.

ومن أجل ذلك لا يصح قياس الفروق بين الأمم بطبقاتها الوسطى بل العليا إن وجدت. إذ الفرق ضعيف بين الطبقات الوسطى في أمم الصين والهند وأوروبا من حيث العقل وهو جسيم بين طبقاتها العليا.

وكلما تقدمت الحضارة اتسعت دائرة الفروق بين الأمم وبين أفراد كل أمة وعلى الأخص أفراد الأمم الراقية. فثمرة المدنية والحضارة هي على الضد من آمالنا تزيد الفروق بين الناس من حيث العقل ولا تميل بهم إلى المساواة أبداً.

ومن أخص أثار المدنية إيجاد فرق بين بعض الأمم وبعضها وبين طبقات كل أمة راقية لما تضطر إليه كل واحدة من الأعمال العقلية كلما ارتقت حضاراتها والمشاهد أن تلك الأعمال في ازدياد مستمر.

انظر إلى تطور الصناعة تره يقضي على الطبقات النازلة في الأمم المتحضرة بالبقاء على عمل محدود جداً ليس فيه ما يزيد من قوتهم العاقلة بل هو يؤدي إلى إضعافها. ولقد كان العامل منذ مائة عام أستاذاً ماهراً يقدر على صنع آلات الساعة بأكملها مثلا.

فأصبح اليوم آلة نحرك غيرها، ثم هو لا يعمل إلا في قطعة واحدة فتفنى حياته في خرق الخروق بعينها أو جلاء القطعة بذاتها أو إدارة الآلة الواحدة. وينتج من ذلك سرعة انطفاء القوة العاقلة فيه، وأما صاحب المصنع أو المهندس الذي يستصنع ذلك العامل فإن أحوال المسابقة والاكتشافات تدفعه إلى تحصيل المعلومات الكثيرة وتولد فيه من الهمة

الذاتية وتنمي عنده من قوة الاستنباط أكثر مما كان يحتاجه منذ قرن من الزمان. ولما كان عقله يعمل على الدوام فإنه يزداد على الدوام لناموس وظائف الأعضاء.

أشار "تو كفيل" إلى تدرج الفروق الذي نبحث فيه بين طبقات الأمم في زمن لم تبلغ الصناعة فيه من الارتقاء مبلغها في الوقت الحاضر فقال "كلما توسع الماس في تطبيق قانون توزيع العمل ضعفت قوة العامل وحد عقله وزادت تابعيته لغيره فالصناعة تتقدم والصانع يتأخر والفرق ينمو كل يوم بين العامل ورئيسه".

تشبه الأمة الراقية في هذا العصر من حيث العقل هرماً له درج. الجموع النازلة كتلته العظمى والطبقات السامية المدارك قسمه الأعلى[10] وفي الذرة ترى النبغاء من العلماء وأصحاب الاكتشافات وأساتذة الفنون والكتاب وهؤلاء طائفة صغيرة جداً بالنظر لمجموع الأمة ولكنهم هم الذين يقاس بهم مستوى البلاد العقلي في سلم المدينة. فما أصدق قول "سان سيمون" "إذا أضاعت فرنسا الخمسين الأول من علمائها ومثل ذلك أهل فنها وصناعتها وزراعتها قطعت رأس الأمة وأصبحت جسماً بلاروح ولكنها إذا فقدت جميع

(١٠)قلت السامية المدارك ولم اضف المتعلمة لأن من الخطأ الذي جرت عليه الأمم اللاتينية خاصة الاعتقاد بوجود نسبة بين العلم والذكاء إذ يكفي في التعلم أن يكون المتعلم على جانب من القوة الحافظة ولكنه لا يستلزم شيئاً من صفات القوة العاقلة أو القوة التصويرية أو الهمة الذاتية أو قوة الاستنباط. وكم يلتقي الإنسان بمن جمع إليه من الشهادات شيئاً كثيراً وهو ذو عقل صغير وكم يلتقي بغير متعلم يتوقد ذكاء وعليه فدرج هرمنا العليا تتألف من عناصر جميع الطبقات ففي جميع الحرف أفراد امتازوا بسمو المدارك ولكن الظاهر بحكم الوراثة أن عدد أولئك المتفوقين يكثر في الطبقات الراقية وإن ذلك هو عله استلاء الطبقات المذكورة

موظفيها الرسميين فإن تلك الحادثة تحزن الفرنسيين لطيب نفوسهم ولكنه لا ينجم في البلد لذلك من الضرر إلا اليسير".

كلما ارتقت الحضارة زادت سرعة اتساع الفروق بين طبقات الأمة وربما بلغت تلك السرعة نسبة المتوالية الهندسية المعروفة في علم الحساب. ولولا أن الوراثة تحول دون تعاظمها لوصل الفرق مع الزمن بين الطبقات العليا والطبقات الدنيا إلى مثل ما هو عليه بين الأبيض والأسود بل بين هذا وبين القرد.

والواقع أن هناك أسباباً كثيرة تعترض اتساع الهوة بين الفريقين بمقدار ما تؤدي إليه النظرية وحدها. أولها أن التمايز لا يحصل في غير القوة العقلية إلا قليلاً فلا يتناول الخلق أو هو لا يتناوله إلا بضعف شديد. وقد علمنا أن الشأن الأول في حياة الأمة للخلق لا للعقل. ثانيها أن الجموع سائرة في هذا إلى القوة بما تنظم من شئون نفسها والجموع تبغض المتفوقين على اختلاف أنواعهم بغضاً لا ينكره أحد. ومن المحتمل أنها إذا كمل نظامها تهدم كل قوة عقلية تعترضها كما أسقطت طائفة الأشراف منذ مائة عام. ومتى عمت سيادة الاشتراكية في أوروبا فلا أمل لها بالبقاء بعض الزمن إلا إذا أتت على كل من خصه الله بموهبة تميزه أقل تمييز عن أدنى درجة الأواسط.

هذان السببان عارضان لأنهما متولدان عن الحضارة والحضارة متغيرة بطبيعتها، وهناك سبب أهم منهما يحول بين خيار النبغاء وبين سرعة افتراقهم عن بقية طبقات أمتهم من ناموس الوراثة القوى فإنه

يقضي بزوال من تتسع الهوة بينه وبين أواسط أمته أو بإرجاعه إلى ذلك الوسط، إذ المشاهدات القديمة التي دونها العلماء المشتغلين بالوراثة تدل على أن نسل العائلات رفيعة المدارك ينتهي في الغالب بالفساد ثم بالزوال التام عاجلاً أو آجلاً. والعاجلة أرجح.

وعليه يظهر أن سمو الإدراك في الرجل مقرون بفساد النسل ولولا أن ذروة الهرم التي أشرنا إليها من قبل تتغذى على الدوام من العناصر التي دونها لانقرضت عن آخرها، ولو جمع النبغاء من كل طبقة وأسكنوا ناحية على حدة فتناسلوا لتولد منهم أمة مصابة بالفساد ولا تلبث أن تزول، وما أشبه كبراء المتفوقين في سمو المدارك بالنباتات ذات الضخامة الفاحشة التي ينميها البستاني بحيلة صناعية إذا تركت وشأنها ماتت أو رجعت إلى حدها الوسط الذي هو العنصر الأقوى لأنه جماع ما ورث عن الأجداد.

والمتأمل في أحوال الأمم يرى إن أفراد كل واحدة منها وإن افترقوا كثيراً من جهة العقل يكادون لا يفترقون من جهة الخلق الذي هو الصخرة الثابتة رغم تقلب الأزمان كما بيناه، لذلك ينبغي عند البحث في أحوال أمة أن ينظر إليها من جهتين. فهي لا قيمة لها من الجهة العقلية إلا بالنبغاء وهم قليلو العدد وإليهم يرجع رقي علومها وآدابها وفنونها. فقيمة الأمة تقاس بطبقاتها الوسطى دون غيرها لأن قوة الأمة تابعة لمستوى هذا الوسط.

فيجوز أن تستغني الأمة عن النبغاء في العقل ولكنها لا حياة لها إلا

بالخلق. وسنبرهن على ذلك قريباً.

ينتج مما تقدم أن الفروق من جهة العقل في نمو مستمر وأما الخلق فإنه يدور دائما حول المثال الوسط، وهو الذي يرتقي رويداً رويداً وفيه يشترك السواد الأعظم من أهل كل أمة، ويرى هذا الأسس المتين ولاسيما عند الأمم الراقية مكسوا بطبقة لطيفة من المدارك السامية، وتلك الكسوة هي التي لها المقام الأول في تقدم الحضارة وارتقاء المدنية ولكنها لا أهمية لها من حيث التأثير في أصل الجنس، وكأنى بها كسوة من اللباس فما أشبه الأثنين في البلاء والتجدد، فطبقة النبغاء على الدوام في تحلل وعلى الدوام في نجدد، والذي يبليها هي الطبقة الوسطى التي لا تتغير إلا قليلاً جداً لأن أقل تحول فيها يقتضي تجدد الوراثة قروناً طويلة.

ولقد وصلنا منذ بضع سنين من طريق البحث التشريحي إلى أثبات هذه الفروق التي ندلل عليها الآن من طريق البحث النفسي. ولما كان البحثان قد أديا إلى نتيجة واحدة فسأورد للقارئ بعض نتائج البحث الأول وهي مؤيدة بما أجريته من قياس عدة آلاف من الجماجم القديمة والحديثة لأفراد من أمم مختلفة. وإليك أهمها نقلاً عن كتابنا "أبحاث تشريحية ورياضية في اختلاف حجم المخ ونسبة ما بين ذلك ودرجة العقل" المطبوع سنة ١٨٧٩ وهي رسالة قرظها المجمع العلمي وجمعية "الأنثروبولوجي": "توجد نسبة كبيرة بين حجم الجمجمة وعقل صاحبها، كما ثبت ذلك من المشاهدات المتكررة وإن اختلفت النسبة المذكورة

في بعض الأفراد، ويتبين للباحث أن الفارق بين الأمم الدنيا والأمم الراقية ليس هو زيادة حجم جماجم أفراد، الأول إذ هذا الفرق يسير بل هو وجود أمخاخ نامية نمواً، كبيراً في أفراد الأول وعدم هذا النوع في أفراد الأمم الدنيا، وحينئذ فالتمييز بين الأمم يكون بآحادها لا بمجموعها، إذ الفرق الوسط في حجم الجمجمة ليس كبيراً بين أفراد أمة، وبين أفراد أخرى ما عدا الأمم الدنيا".

"وإذا قابلنا بين الجماجم الأجناس البشرية في الحاضر، والماضي وجدنا أن الأمة التي تكثر الفروق بين جماجم أفرادها من جهة الحجم هي الأرقى في حضارتها، وأنه كلما تقدمت الحضارة ازدادت فورق الجماجم، وينتج من ذلك أن الحضارة لا تسير بالناس إلى المساواة العقلية بل إلى التفاوت بينهم، في ذلك كثيراً، ولا توجد المساواة التشريحية والتركيبية إلا بين أفراد الأمم المنحطة، فالفرق يسير جداً بين قوم من الهمج كلهم يعمل عمل أخيه، والفرق عظيم جداً بين الزارع التي تنحصر بضاعته من اللغة في ثلاثمائة كلمة وبين العالم الذي يعرف من ذلك مائة ألف وما يقابلها من المعاني، وينبغي أن نشير هنا إلى أن الفرق الذي تحدثه المدنية بين الأفراد مشاهد أيضاً بين الجنسين، فالرجل والمرأة متساويان على التقريب من جهة العقل عند الأمم المنحطة وفي الطبقات النازلة من الأمم الراقية، ويظهر ذلك الفرق وينمو كلما ارتقت الأمة في المدنية".

"ومن المشاهد أيضاً وجود فرق بين حجم جمجمة الرجل وجمجمة

المرأة تزداد سرعة نموه بتقدم المدنية، وذلك ثابت حتى من مقارنة جماجم من اتفقا في العمر والقامة والوزن كما جربناه نحن، وهذه الفروق ضعيفة جداً في الأمم المنحطة، وكبيرة جداً في الأمم الراقية، وقلما يزيد حجم جماجم النساء في الأمم الراقية عن حجم جماجم نساء الأمم المنحطة، فبينا نشاهد أن متوسط حجم جماجم الباريسيين في الصف الأول، من النمو نرى متوسط حجم جماجم الباريسيات مساويا لأقل، حجم وقع تحت المشاهدة فهم يقرب من حجم جماجم الصينيات ولا يزيد إلا يسيراً عن حجم جماجم نساء "كاليدونيا الجديدة"".

الفصل الخامس

تكوين الأمم التاريخية

كيف تكونت الأمم التاريخية – الأحوال التي تساعد على امتزاج شعوب مختلفة وتكوين أمة واحدة – تأثير عدد أفراد كل فريق من الفرق المجتمعة واختلاف أخلاقهم وبيتهم وهكذا –نتيجة التوالد – علة انحطاط درجة المولدين – عدم ثبات الأخلاق النفسية المتحصلة من التوالد – كيف تنبت تلك الأخلاق – أزمنة التاريخ الحرجة – التوالد عامل قوي في تكوين الأمم الجديدة وهو أيضاً عامل قوي في تحليل المدنية – أهمية نظام الطوائف – تأثير البيئات – في أنها لا تؤثر إلا في الأمم الجديدة التي لا تزال في دور التكوين بعد أن يكون التوالد فكك عري أخلاقها الموروثة – في أنه لا تأثير لها في الأمم القديمة – أمثلة شتى –في أن معظم الأمم التاريخية بأوروبا لا تزال في دور التكوين – نتائج ذلك السياسية والاجتماعية – السبب في قرب انقضاء زمن تكون الأمم التاريخية.

قدمنا أنه لم يبقى بين الأمم المتحضرة شعوب حقيقية بالمعنى العامي، وأن الموجود الآن هو أمم تاريخية تكونت اتفاقاً بتأثير الفتوحات والهجرة والسياسة وهكذا، فهي حينئذ مركبة من أشخاص مختلفي الجنس أصلاً.

والآن نبحث في كيفية امتزاج الشعوب المختلفة وصيرورتها أمة تاريخية ذات أخلاق نفسية واحدة.

ونلاحظ أولا أن بعض العناصر التي تجتمع اتفاقاً ببعضها لا تمتزج دائماً، فالشعوب الألمانية والهنكارية والسلافية وغيرها نت التي تعيش تحت الدولة النمساوية ممتازة عن بعضها امتيازاً تاماً ولم تظهر فيها حتى الساعة ميلاً إلى الامتزاج، وكذا الايرلندي الخاضع لحكم إنجلترا لا يزال حافظاً لكيانه. وأما الأمم المنحطة جداً كأصحاب الجلود الحمر "بوروج" و"الأستراليين" و"التسمانيين" وغيرهم ففضلاً عن كونهم يمتزجون بالأمم الراقية فأنهم يفنون فيها إذ دلت التجربة على أن كل أمة منحطة تزول باختلاطها مع أمة راقية لا محالة.

ولامتزاج الشعوب بعضها ببعض وصيرورتها أمة جديدة متحدة اتحاداً تاماً شروط:

الشرط الأول: هو أن لا تكون الشعوب المتوالدة مختلفة العدد كثيراً. والثاني: أن لا يكون الفرق في أخلاقها كبيراً، والثالث: أن تعيش زمناً طويلاً تحت تأثير عوامل بيئة واحدة.

والشرط الأول أهم الثلاثة، فإذا نزح عدد قليل من البيض وأقام بين الزنوج فنى فيهم ولم يترك من دمه أثراً في نسله.

وهكذا فنى الفاتحون الذين أقاموا في أمم كثيرة العدد، وقد ترك اللاتينيين في بلاد "الغلو" والعرب في مصر حضارتهم وفنونهم ولغتهم

ولكنهم لم يتركوا دمهم.

وللسبب الثاني أيضاً أهمية كبيرة، نعم يجوز أن يكون الفرق بين الشعبين المجتمعين كبيراً ومع ذلك يمتزج أحدهما بالآخر كالأبيض والأسود، غير أنه لا يتكون من المولدين إلا أمة منحطة انحطاطاً كبيراً بحيث لا تكون قادرة بحال على أن تخلق لنفسها حضارة أو تدوم على حضارة. ذلك لأن اختلاف المتوالدين يحلل خلق الفريقين ويفكك آدابهم فإذا ورث المولدون من البيض والزنوج مدنية راقية أضاعوها سريعاً كما وقع لأهل "سان دومينج" وأما بين الأمم الراقية فالتوالد عامل قوي من عوامل الارتقاء متى تقاربت بعضها من بعض في الجنس كالإنجليز والألمان بأمريكا أما إذا كان الفرق كبيراً فالتوالد يورث فساد النسل لا محالة.

لذلك نرى جميع الأمم التي يكثر بين أهلها عدد المولدين من النوعين الأبيض والأسود محكوماً عليها باستقرار الفوضى اللهم إلا إذا تولت حكمها يد من حديد، ذلك هو مصير البرازيل من دون شك فليس فيها من البيض إلا الثلث، وقد أصاب "اغاسيز" الشهير بقوله "من زار البرازيل لا يسعه إنكار التدهور الناجم عن التوالد فيها أكثر من غيرها، فهو يمحو فضائل البيض وفضائل السود وفضائل الهنود على السواء ويخلف نسلاً ضعيفاً جسماً وعقلاً بل لا يقدر الواصفون أن يصفوه".

توالد الأمم بغير مزاجها الجسمي ومزاجها العقلي معاً، وهو الوسيلة الوحيدة التي يمكن معها تغير ماهية الخلق الأصلي في الأمة لأنه لا يفل الوراثة إلا الوراثة فإذا طال الأمد على التوالد تولد من فعله أمة جديدة

ذات صفات جسمانية ونفسية جديدة.

وتكون الأخلاق المتولدة على هذا النحو متقلبة ضعيفة في مبدأها ولا تثبت إلا بتقادم فعل الوراثة فيها. فأول أثر لتوالد أمتين هو إبادة روح كل منهما أعنى مجموع المشاعر والأفكار العامة التي هي سر قوة الشعوب وبدونها لا توجد أمة ولا وطن.

وهذا الدور هو أشق الأدوار في حياة الأمم لأنه دور نشوء وتأسيس وقد اجتازته الأمم جمعاء فلا تكاد توجد أمة أوروبية غير قائمة على أطلال أمم أخرى وهو مملوء بالانقسامات الداخلية والتقلبات المختلفة ولا ينقضي حتى تستقر الأخلاق النفسية الجديدة.

ومما تقدم يتبين أن التوالد عامل أصلي في تكوين الأمم الجديدة ومؤثر قوي في تحليل الأمم القديمة، لذلك أصابت الأمم التي بلغت درجة عالية من الحضارة في ابتعادها عن الاختلاط بالأجانب، ولولا التمسك بحبال العصبية لما أمكن للآريين على قلة عددهم لما أغاروا على الهند منذ ثلاثة آلاف عام أن يستبقوا شعبهم ولا بتلعتهم تلك الأمم السوداء التي كانت تحيط بهم من كل جانب في بطونها ولما قامت للحضارة قائمة في شبه جزيرة الهند العظمى وتوالدوا بينهم وبين الهنود، ولو أن الإنجليز تساهلوا في العصر الحاضر لفرت دولة الهند الضخمة من أيديهم منذ زمن بعيد، والحاصل أنه يجوز أن تفقد الأمة شيئا كثيراً من مشخصاتها وأن تنتابها محن كبرى ثم تسترد قوتها وتنهض ثانياً ولكنها لا تقوم من رقدتها إذا أضاعت روحها.

ومتى مالت الحضارة إلى الذبول وأصبحت فريسة المغيرين عليها من طريق الهدوء والسلم أو من طريق العنف والقوة في الأمة أخذ أثر التوالد وجعلت أخلاقها تتحلل وتتركب فتهدم الحضارة أولاً لتهدم روح الأمة ويخلو السبيل لقيام حضارة جديدة بعد تحلل الأخلاق النفسية القديمة وقيام أخلاق جديدة على أطلالها.

وإذا دخلت الأمة الجديدة في دور التكوين بعد اجتيازها الأدوار المتقدم ذكرها ظهر أثر السبب الثالث الذي جاء ذكره في أول هذا الفصل، أعني أثر البيئات ضعيف جداً في الأمم القديمة وقوي جداً في الأمم الجديدة، وعلة ذلك أنه متى خلى الطريق من الأخلاق النفسية القديمة بتأثير التوالد أصبح من السهل على البيئة أن تؤثر تأثيراً محسوساً في تلك الأرض الخالية وبمرور العصور عليها تتولد أخلاق جديدة ثم تثبت نهائياً،

وإذا ذاك يقال أن أمة جديدة قد تكونت وهكذا تكونت أمتنا "فرنسا".

وعليه فتأثير البيئة يكون كبيراً أو صغيراً بحسب الأحوال سواء في ذلك البيئة المكانية والأدبية، وهذا هو سبب اختلاف آراء الباحثين فيه اختلافا كلياً وقد قلنا أنه عظيم في الأمة التي في دور التكوين أما في الأمة العريقة في القدم بتكرار الوراثة فيكاد يكون معدوماً.

أما دليلنا على ضعف أثر البيئة الأدبية فهو عدم تأثير حضارتنا الغربية في الأمم الشرقية وإن طال زمن الاختلاط بيننا وبينهم كما هو

مشاهد في الصينيين المتوطنين بالولايات المتحدة، وأما دليلنا على ضعف تأثير المكانية فهو صعوبة استيطان البلد الأجنبي، إذ من المشاهد أنه إذا نقل جنس من الأجناس إنساناً أو حيواناً أو نباتاً من مسقطه إلى بلد مختلفة عن بلده فنى ولم يتحول، وبرهانه أن عشرة أمم قد افتتحت مصر وكانت مصر مقبرة الجميع، وما استطاع فاتح أن يستقر فيها، جاءها اليونان والرومان ثم الفرس والعرب ثم الأتراك وغي هؤلاء وهؤلاء ولم يترك فيها واحدا منهم أثراً من دمه، إنما النموذج الذي يشاهد فيها هو ذلك الفلاح ذو النسخة الصادقة في الدلالة على أنه سلالة أولئك الذين رقمهم مهرة الصناع المصريين على قبور الفراعنة وفي جدران قصورهم منذ سبعة آلاف من السنين.

لا يزال معظم الأمم التاريخية بأوروبا في دور التكوين فينبغي للباحثين أن يقفوا على هذه الحقيقة ليفهموا تاريخ هذه الأمم وليس في الغرب الآن أمة تم تكوينها وثبتت صفاتها إلا الأمة الإنجليزية حيث لم يبق من أثر للبروتوني ولا للسكسوني ولا للنورمندي بل عفت آثار الكل وأخلوا المكان لعنصر جديد متسق الأجزاء متناسب الصفات، أما في فرنسا فلا يزال الفرق موجوداً بين "البروفنسي" وبين "الأوفرني" و"النورمندي" على أنه إذا لم يتم تكوين المثال الفر نساوي الوسط إلى الآن فإن المثال الوسط لبعض الأقاليم قد وجد، لكن من الأسف أن هذه الأمثلة الوسطى لا تزال متفاوتة بعضها عن بعض في الأفكار والأخلاق ولهذا كان من الصعب الاهتداء إلى نظامات تلائم أحوالهم جميعاً، ولولا حصر السلطة حصراً قوياً لما اتحدوا في بعض أحوالهم العقلية، والفوارق

في المزاج العقلي بين الفرنسيين بعضهم وبعض هي علة انقسامهم على كثير من المسائل المتعلقة بالمشاعر والمعتقدات كما أنها علة الانقلابات السياسية التي هي أثر من آثار ذلك الانقسام ولن يزول هذا وذاك إلا بفعل الزمان.

ولقد كان هذا أيضاً حال الأمم الأخرى التي جرتها الحوادث إلى الاحتكاك بعضها ببعض فكانت الانشقاقات والاضطرابات فيها على قدر افتراقها في المزاج العقلي، فإذا كان الخلف واسعاً استحال بقاء المختلفين تحت لواء واحد وعز إخضاعهم جميعاً إلى قانون بذاته، وتاريخ جميع الممالك العظيمة في جميع الأزمان شاهد على ذلك، فإنها دالت في الغالب بزوال من شيدها، وليس بين الأمم الحاضرة أمة تمكنت من إخضاع أمم مختلفة عنها كل الاختلاف إلا الإنجليز والهولنديون في القارة الأسيوية. وهم إنما نجحوا في ذلك بعدم تعرضهم لعادات تلك الأمم وأخلاقها وشرائعها وبتركهم إياها في الواقع يحكمون أنفسهم بأنفسهم مكتفين من السيادة بسهم من الضرائب والعمل في التجارة والقيام على تأييد السكينة وحفظ النظام.

وما عدا هذه الاستثناءات النادرة يتعذر قيام الدول الضخمة التي تضم إليها أمما مختلفة إلا بالقوة، على أنها تكون أيضاً عرضة للزوال بوسائل القوة ولا يمكن أن تنشأ أمة ويثبت قدمها إلا إذا تكونت على مهل بامتزاج العناصر التي قلت الفروق بينها وباستمرار توالدها ودوام حياتها تحت سماء واحدة وخضوعها لتأثير بيئة واحدة وانقيادها

لمعتقدات واحدة ونظامات واحدة، إذا اجتمع ذلك لعناصر مختلفة أمكنها بعد مرور عدة قرون أن تصير أمة واحدة.

وكلما تقادمت الدنيا في الوجود زادت الأمم ثباتاً ورسوخاً وقل تحولها بتأثير الامتزاج شيئاً فشيئاً وكلما بلغت الإنسانية عقداً من العمر أثقلت كاهلها عوامل الوراثة وتعذر عليها التحول عن حالتها وعلى ذلك يمكن أن يقال أن دور تكوين الأمم التاريخية في أوروبا أوشك أن ينقضي.

الباب الثاني

ظهور أخلاق الأمم في عناصر مدنيتها

الفصل الأول

في أن عناصر المدنية في كل أمة هي مظاهر روح الأمة في الخارج

عناصر كل مدينة هي المظاهر الخارجية لروح أمتها – اختلاف أهمية هذه العناصر باختلاف الأمم – قد يكون الشأن الأول للفنون أو الآداب أو النظامات أو غيرها من العناصر بحسب الأمم – التمثيل لذلك في الزمن القديم بالمصريين والإغريق والرومانيين – التمثيل بالفنون – مدلول الفنون – استحالة دلالة أحد عناصر المدنية وحدة على درجة رقيها – العناصر التي توفر على الأمة أسباب تفوقها – قد تكون العناصر منحطة فلسفياً ولكنها ذات قيمة كبيرة من الوجهة الاجتماعية.

عناصر كل مدينة من لغة ونظامات وأفكار ومعتقدات وفنون وآداب هي التي يجب اعتبارها مظاهر خارجية لروح منأوجدها، إلا أن أهمية هذه العناصر في الدلالة على ذلك مختلفة باختلاف الشعوب والأزمان.

وقاما يخلو كتاب من الكتب المؤلفة في مبتكرات الفنون من تقرير أن هذه المبتكرات هي ترجمان فكر أمتها الأمين وأنها الدليل الصادق على مدنيتها.

ولا شبهة في أن الأمر كذلك في الغالب إلا أنها قاعدة ليست عامة بحال، وليس رقي الفنون في الأمة مقترناً على الدوام برقي الأمة العقلي

فمن الأمم من تكون فنونها عنوان رقيها ومنها من تكون بالغة درجة رفيعة في المدينة وليس للفنون عندها إلا شأن صغير.

ولو أنا اضطررنا إلى وضع تاريخ كل أمة باعتبار أحد تلك العناصر دون البقية لوجب أن نسند كل تاريخ إلى عنصر خاص فتكون الفنون في هذه والنظامات في تلك والجندية في الأخرى والتجارة عند الرابعة وهكذا، وذلك مبحث يجب أن نبدأ بتقريره لأنه يفسدنا في بيان سبب تحول عناصر المدنية تحولا متفاوتاً بانتقالها من أمة إلى أخرى.

يشاهد الفرق في نمو عناصر المدنية على الأخص عند المصريين والرومانيين في الزمن القديم بل يشاهد عندها أيضاً اختلاف الرقي في فروع العنصر الواحد.

فأما المصريون فقد كانت صناعة الأدب عندهم منحطة وصناعة النقش ضعيفة وكان فن العمارة وصنع التماثيل من أعظم المبتكرات، ولا يزال أهل هذا العصر معجبين بما شيد المصريون من المباني، وقد تركوا لنا أيضاً من صناعة التماثيل طرفاً "كشيخ البلد" و"الكاتب" و"راحوتب" و"نفرتاي" وكثير غيرها مما يصح أن يتخذ مثالا ينسخ على منواله، ولم يصل الإغريق إلى التفوق عليهم إلا ردحاً من الزمن قصيراً.

ونذكر بجانب المصريين قوم روما الذين لعبوا دوراً مهماً في التاريخ ولم يعوزهم المعلمون والأمثلة التي يحتذونها فقد كانوا قربى عهد بالمصريين والإغريق ومع ذلك لم يتوصلوا إلى إيجاد فنون خاصة بهم،

وهم أقل الأمم التي عرفها التاريخ ظهوراً في منتوجات الفنون إذ كانوا لا يعنون بها إلا قليلا ولا ينظرون إليها إلا من جهة ما فيها من الربح فيعتبرونها من السلع التي تباع في الأسواق كالمعادن والعطريات والتوابل وغيرها مما يطلبونه لدى الأمم الأخرى، وقد بلغوا أوج سؤددهم وليس لهم فنون وطنية حتى أنهم بعد أن استقر ملكهم ووفرت أموالهم وارتقت ميولهم في الزخرف وتأثرت بذلك مشاعرهم الفنية بعض التأثير ما برحوا يلتمسون من الإغريق أمثلة يصنعون على منوالها وصناعاً ينفذون ما يطلبون.

وإذا أردنا أن نسطر تاريخ فن العمارة أو الحفر عند الرومانيين وجدناه فصلا من فصول تاريخ ذينك الفنين عند الإغريق.

انحطت تلك الأمة الرومانية العظيمة في باب الفنون ولكنها رفعت إلى السماء راية ثلاثة من عناصر المدنية الأخرى فأجادت نظام الجندية حتى استلمت به قياد العالم بأسره وأحكمت النظامات السياسية والقضائية التي لا تزال نحتذيها حتى الآن وأحدثت فن أدب اتخذناها عنها قروناً طوالا.

بذلك نرى اختلاف نمو عناصر المدنية في أمتين لا مشاحة في أنهما بلغتا من الرقي درجة عليا ويتبين لنا وجه الخطأ في الاقتصار لتقرير حقيقة الحضارة عند الأمم على عنصر واحد من تلك العناصر كالفنون وحدها، لأنا رأينا عند المصريين فنوناً وصلت حد الإعجاز إلا النقش وفن أدب في مستو صغير جداً، ورأينا عند الرومانيين فنوناً ضئيلة لا شخصية فيها ولكنا عرفنا لها أدباً رائعاً سياسياً وعسكرياً من الطراز الأول.

ولنا أن نذكر الإغريق وهم من الأمم التي تفوقت في فروع شتى من عناصر المدنية، كان فن الأدب راقياً جداً في زمن _هوميروس" بدليل أن أغانيه لا تزال معتبرة كالسلسبيل الذي تشبعت به شبيهة الجامعان الأوروبية منذ قرون. وقد دل التنقيب عن عمارات الأزمان الغابرة على أنها كانت تقرب في زمن ظهور تلك الأغاني من عمارات المتوحشين وأنها عبارة عن خليط مشوه منقول مما شاد المصريون والآشوريون.

وأظهر ما يشاهد الفرق في نمو عناصر المدنية في الأمم الهندية، فأما العمارات فقلما وجدت أمة فاقت الهند فيها وأما الفلسفة فقد بلغ بعد نظرهم فيها شأواً لم يبلغه عقل الأوربيون إلا منذ عهد قريب جداً وأما صناعة الأدب فلهم فيها مقاطيع وملح تعجب الكتاب وإن لم يبلغوا في ذلك الفن مبلغ الإغريق والرومان.

وكانوا متأخرين في صناعة التماثيل عن الإغريق بمراحل ثم هم مجردون من العلوم والمعلومات التاريخية وملكة التحقيق مفقودة منهم إلى حد لا وجود له عند أمة أخرى، فلم تكن علومهم إلا تخيلات صبيانية، وما كتبهم في التاريخ إلا قصص سخيفة ليس فيها تاريخ حادثة واحدة ربما خلت من ذكر واقعة صحيحة، ولو اقتصر الباحث على النظر إلى الفنون وحدها لما كفى ذلك في بيان الدرجة التب كانت عليها حضارة هذه الأمة.

وهناك أمثلة كثيرة غير ما تقدم للدلالة على مبحثنا هذا فمن الأمم من لم تبلغ النهاية في سلم الرقي وكان لها في الفنون طابع خاص لا نرى

فيه نسبة ظاهرة بينه وبين فنون الأمم التي تقدمته ذلك شان العرب ففي أقل من قرن بعد إغارتهم على الأمم الإغريقية الرومانية القديمة قلبوا صورة العمارات البيزنطية بعد أن جروا على مثالها حتى أصبح من المتعذر معرفة المصدر الذي اتبعوا فنهم منه لولا وجود سلسلة العمارات السابقة.

ومن الأمم من ليس لها أدنى مقدرة فنية أو أدبية ولها مع ذلك حضارة راقية كما وقع للفينيقيين الذين لم يعرف لهم تفوق إلا في التجارة، وهم الذين مدنوا الدنيا القديمة بما أوجدوا من الصلاب بين جميع أطرافها، أما هم فلم ينتجوا شيئاً جديداً وينحصر تاريخهم في ذكر ما كانت عليه تجارتهم.

وهناك أمم انحطت لديها جميع عناصر المدنية إلا الفنون كأمة "المغول" فإن الآثار الضخمة التي أقاموا في الهند يكاد لا يكون عليها شيء من المسحة الهندية، وقد بلغت من الرواء حداً جعل المدققين في هذا الفن يرون بعضها أجمل ما شادب يد الإنسان، ومع ذلك لا يخطر على بال أحد أن يعد "المغول" في مصاف الأمم الراقية.

على أن تشاهد عند أرقى الأمم حضارة أن الفنون لم تبلغ نهاية في رقيها أيام زهو تلك الحضارة. فإن أعظم مباني المصريين والهنود هي أقدم ما بنوا، وقد تفتحت أكمام الفن المعروف باسم "الغوطي" بأوروبا في القرون الوسطى حيث كانت أمم الغرب في حالة من الهمجية، ولا تزال تلك الآثار عديمة النظر إلى يومنا هذا.

لذلك يتعذر الحكم على درجة حضارة الأمة بدرجة رقي فنونها دون غيرها لأنها كما سبق لي القول ليست إلا أحد عناصر المدنية، ولم يثبت أن هذا العنصر هو أرقى العناصر كما أن ذلك غير ثابت أيضاً لصناعة الأدب، بل المشاهد غالباً أن المصنوعات الفنية هي أضعف العناصر عند طلائع الأمم المتحضرة كالرومان في العصور الخالية والأمريكان في هذا الزمان، والمشاهد غالباً أيضاً كما قدمنا أن الأمم أنتجت أنفس فنونها وأشهى أدبها وعلى الأخص الأولى منها أيام كانت في شبه البربرية، بل يخيل لنا أن دور ازدهار الفنون والأدب في أمة هو دور انبثاق طفوليتها أو شبيبتها لا دور تمام نموها، وإذا التفتنا إلى الدنيا الجديدة التي يلوح لنا فخرها وقد استهوتها المصالح المادية ورأينا شأن الفنون عندها يكون غير محسوس أمكننا أن نخبر عن اليوم الذي تنزل فيه الفنون إلى درجة المظاهر الثانوية الدالة على المدنية إن لم تنزل إلى الدرجة السفلى.

وهناك أسباب كثيرة تمنع من أن يكون رقي الفنون ملازماً على الدوام لرقي غيره من عناصر المدنية فتكون برهاناً على الحالة التي وصلت إليها المدينة المذكورة إذ المشاهد أن بمجرد وصول الفنون إلى درجة معينة من الارتقاء أعني متى ظهرت الطرف تأخذ الفنون في الانحطاط غير تابعة في ذلك حركة بقية العناصر الأخرى، ذلك ناموس عام غير خاص بأمة دون أخرى أثره ظاهر في مصر واليونان وفي أمم أوروبا على اختلافها، ويستمر هذا التطور نحو السقوط إلى أن تحدث ثورة سياسية أو غارة أجنبية أو إلى أن تعتنق الأمة ديناً جديداً وتعرض

حادثة أخرى من الحوادث التي تتكيف بسببها، حصل ذلك في القرون الوسطى فإن الحروب الصليبية حببت إلى أوروبا معارف وأفكاراً جديدة ظهر طابعها في الفنون حيث انتقلت مستحدثاتها من الطراز الروماني إلى الطراز "الغوطي"، وبعد ذلك ببضع قرون تجددت نهضة علوم الأدب الإغريقية الرومانية وانتقلت الفنون من الطراز "الغوطي" إلى طراز "النهضة الجديدة" وقس على ذلك تغيير طراز الفنون الهندية في الهند بسبب دخول العرب في تلك الأقطار.

ومما تجب ملاحظته أن الفنون من حيث دلالتها بعض حاجات المدنية وكونها نتيجة بعض المشاعر المخصوصة تتحدد وتتغير بحكم الضرورة، وقد تزول بالمرة تبعاً لتغيير تلك الحاجات والمشاعر أو زوالها، ولا يترتب على ذلك أن تكون الحضارة نفسها في ذبول، وهذا برهان جديد على فقدان التوازن بين الفنون وبين غيرها من عناصر المدنية، ألا ترى أن المدنية لم تبلغ من الرقي ما بلغته في هذا الزمان، وأن الفنون ما كانت في زمن من الأزمان أكثر تبذلاً وشيوعاً وأبعد مشخصاً لأممها منها الآن. وسببه تغير المعتقدات الدينية والحاجات والمشاعر التي كانت تجعل الفنون عنواناً على الحضارة أيام ما كانت هذه منحصرة في داخل القصور والصوامع، والبيع فصار البيع أمراً ثانوياً وبضاعة زخرف لم يعد أمن الجائز أن يفني فيها الوقت الكثير والمال الوفير، ولما لم يعد الفن من الحاجيات أصبح حتماً صناعياً وتقليداً على الغالب، فلا توجد الآن أمة لها فنون ملية خاصة بها وكل أمة تنقل طراز العمارات والحضر نقلا متقنا أو غير محكم عن الأمم التي تقدمتها.

نعم لا ننكر أن تلك الصور المنقولة تدل على حاجات أو ميول عند الناقل، ولكن من المحقق أنها لا تدل على ما نحن عليه الآن من الأفكار والمشاعر، أني أنظر إلى مصنوعات أهل الفن عندنا في الأزمان الوسطى على سذاجتها فأجد أنهم كانوا يرسمون القديسين أو المسيح أو الجنة أو النار مما كان له الشأن الأول في ذاك الزمان وإليه تتجه أغراض الحياة ثم انظر إلى المصورين في هذه الأيام وهم ليسوا من أهل ذلك الاعتقاد يكسون جدران المباني بصور قديمة وشارات ترجع إلى زمن طفولية.

البشر يحاولون بذلك التذكير بعصر مندثر فأشعر بأنهم يحدثون صور صناعية أو صورية لا ترجع إلى حقيقة ولا فائدة منها لأهل هذا العصر ولا يعبأ بها أهل العصور القادمة.

إنما الفن الحقيقي هو الذي يدل دلالة صحيحة على زمنه الخاص حيث يصور الصانع ما يقع تحت حسه أو نظره لا أنه يقصر عمله على تقليد صور تترجم عن أفكار ومعتقدات لم تعد من أفكارنا ولا معتقداتنا، ولا تعتبر الصور صحيحة في وقتنا هذا إلا إذا مثلت الأشياء التي تحيط بنا، وفن العمارة الصحيح الآن هو الذي يمثل لنا الدور ذات الطبقات الخمسة وعيون الأنهار وقناطر المياه والسكك الحديدية هذا الفن مبناه المنفعة وهو الذي ينطبق على أفكارنا وحضارتنا ويمثل كل التمثيل عصرنا كما كانت الكنيسة التي من طراز "الغوط" وقصر عهد الشرفاء يمثلان زمناً مخصوصاً وستستوي تلك الدور الشبيهة بقصر التيه وتلك الكنيسة

"الغوطية" في نظر مهندسي العصر الآتي لأنهما لن تكونا عنده إلا صفحتين من الكتب الحجرية التي يتركها كل زمان للذي بعده كما أنه سيلقى في زوايا الإهمال ما يقلده صناع هذا الزمان.

كل طراز يمثل خيال أهل زمانه، ولما كانت الأزمان متغيرة وكذا الشعوب على الدوام فمن المسلم أن الخيال يتغير بتغيرها، وتستوي الخيالات كلها في نظر الفلسفة لأنها ليست إلا علامات وقتية، وعليه فالفنون مظهر من مظاهر الأمة التي أوحت بها لا فرق بينها وبين غيرها من عناصر المدنية، ولكنها لا نرى فيها الميزان العدل لأفكار جميع الأمم على السواء.

كان هذا التقرير لازما في موضوعنا لأن أهمية أحد عناصر الحضارة عند الأمة هي مقياس قدرة تلك الأمم على تغيير ذلك العنصر إذا نقلته إليها من أمة أخرى، فإذا كانت ذا باع طويل في الفنون كان لابد لكل فن نقلته إليها من الانطباع بطابعها الخاص ولكنها لا تؤثر إلا يسيراً في العناصر التي لا تمثل ملكتها، فلما نقل الرومان طراز عمارات الإغريق لم يحدثوا تغييراً كبيراً لأن روح الأمة الرومانية ما كانت لتظهر في الفنون بل كان اهتمامهم الأكبر بغيرها من عناصر المدنية.

ومع ذلك فإنه بعد قرون قليلة يتأثر الفن بعامل البيئة حتى يدل بالقهر عنه على روح الأمة ولو كانت كالأمة الرومانية ليس لها فن خاص وكانت محتاجة فيه إلى جلب نماذجها وصناعها من أمة أخرى، كذلك نرى معابد روما القديمة وقصورها وأقواس نصرها ونقوشها البارزة مصنوعة

بيد الإغريق أو تلامذة هؤلاء، ولكن مسحة هذه الآثار والأغراض التي أقيمت من أجلها وزخرفها وحتى مساحاتها لا تذكر الناظر إليها بخيال أثينا اللطيف بل هي تمثل القوة والسيطرة والمتعة الحربية التي كانت تقيم روما وتقعدها.

ومن هنا يتبين أنه مهما كانت المادة التي استعملتها الأمة خارجة في الأصل عن شخصيتها لابد من أن نترك فيها أثراً ذاتياً لها يرشدنا إلى شيء من مزاجها العقلي وفكرها النفساني.

وعلة ذلك أن للصانع الحقيقي سواء كان معمارياً أو أدبياً أو شاعراً ملكة سحرية يمثل بها في أعماله روح زمانه وأمته.

فالصناع شديدو الانفعالات، مشاعرهم الهامية، يتعلقون بالصور ولا يبحثون إلا قليلا، فهم بذلك في بعض الأزمنة مرآة الجمعيات التي يعيشون فيها، ومحدثاتهم أصدق شاهد يمكن الاستشهاد به في مدنية أمتهم، والخطأ بعيد عليهم لأنهم يحدثون عما شاهدوا كالببغاء، وهم شديدو التأثر بما يحيط بهم من المحسوسات فلا يضلون في التعبير عن أفكار تلك المدنية ومشاعرها وحاجاتها واتجاهاتها.

أما الحرية فلا يعرفونها وهذا هو السر في قدرتهم، سجنوا عقيدتهم في دائرة من التقاليد والأفكار والمعتقدات التي تكون روح الأمة ومشاعرها الموروثة وكذا الأفكار والإلهامات وكل ذلك شديد التأثير فيهم لأنه هو الحاكم على منابع الأفعال اللاتنبيهية حيث تختمر المحدثات

التي يوجدونها، ولو أنا فقدنا هذه المصنوعات ولم يكن لدينا ما نعرف به العصور الماضية إلا القصص المستهجنة والتلفيقات المخترعة في الكتب التاريخية لأنهم علينا ماضي الأمم كما غابت عنا حقيقة "اطلانطيد" التي غمرتها الأمواج كما ورد خبرها عن أفلاطون.

والخلاصة أن مزية الفن الصحيح هي التعبير الصحيح عن حاجات الزمن الذي ولد فيه وأفصح الألسن على اختلافها لسان محدثات الفنون وأخصها العمارات فهي أصدق أنباء من الكتب وأقل تصنعاً من الديانات واللغات لأنها بنت الحاجات والمشاعر معاً، والمعماري هو مشيد بيت الإنسان وبيت أربابه، وفي المعابد وفي قلب العائلات اختمرت الأسباب الأولى التي كونت تاريخ البشر.

يستنتج من كل ما تقدم أن جميع عناصر الحضارة وهي مظهر روح الأمة التي أحدثتها، وأن بعض هذه العناصر مما يتغير بتغير الأمم وفي الأمة الواحدة وعلى حسب الأزمان المختلفة أصدق في الدلالة على تلك الروح من البعض الآخر.

ولما كانت هذه العناصر متغيرة بحسب الأمم والأزمان فمن الواضح أنه لا يمكن اتخاذ واحد منها كمقياس عام لحضارة الجميع كما أنه يستحيل أيضاً أن ترتب هذه العناصر بعضها فوق بعض لأن هذا الترتيب عرضه للتغيير قرناً بعد قرن تبعاً لتغير أهمية العناصر نفسها بحسب الأزمان كما تقدم.

وإذا حكمنا على عناصر المدنية من جهة الفائدة وحدها قلنا أن أهمها التي تتمكن بها الأمة من استخدام من عداها أعني النظامات العسكرية. وحينئذ يجب أن نضع الإغريق أهل الفنون والفلسفة والأدب دون إخلاط الرومانيين، وحكماء المصريين وعلماءهم دون الفرس القريبين من الوحشية، والهنديين دون المغول الذين يشبهون الفرس.

والتاريخ لا يشتغل بهذه التقاسيم الدقيقة وأعظم شيء له المقام الأول عنده هو التفوق الحربي، ولكن قلما يكون ذلك مقترناً بالتفوق في عناصر المدنية الأخرى وعلى كل حال فإن الأول لا يبقي على الثاني طويلاً لأن الأفضلية الحربية لا تبدأ مع الأسف في الانحطاط لدى أمة إلا ويكون محكوماً على هذه الأمة بالسقوط، وما زالت الدول الراقية إلا أيام بلوغها ذروة المجد وأوج الحضارة فأخلت المكان إلى البرابرة الذين هم أدنى منها بمراحل من حيث العقل إلا أنهم كانوا على شيء من قوة الخلق والمناعة الحربية وهما صفتان تنعدمان دائماً بكثرة الترفه في الحضارة.

وعليه لابد لنا من التسليم والحزن في قلوبنا بأن العناصر المنحطة في نظر الحكماء هي أهم العناصر من الجهة الاجتماعية. وإذا كانت نواميس العصر الآتي هي التي عرفناها عن العصر الخالي قلنا أن أشد الأحوال خطراً على الأمة وصولها إلى أعلى درجات الرقي في العقل والتهذيب، فالأمم تموت متى ضعفت صفات خلقها التي هي نسيج روحها. وضعف هذه الصفات يكون على قدر حظ الأمة من الحضارة والذكاء.

الفصل الثاني

كيف تتغير النظامات والديانات واللغات

ليس في استطاعة الأمم راقية ودنيا أن تغير فجأة عناصر مدنيتها– معارضة ذلك بالأمم التي غيرت ديانتها ولغتها وفنونها – مثال اليابان – في إن هذا التغير صوري – التغير الكلي في البوذية ومذهب البراهمة والإسلام والنصرانية بحسب الشعوب التي دانت بها – التغير الذي يحدث في النظامات واللغات بحسب الأمم التي تدخل عليها – في أن الألفاظ المتقابلة في اللغات المختلفة تعبر عن معان ومشاعر متفاوتة – استحالة ترجمة بعض اللغات إلى بعض من أجل ذلك – السبب في أن مدنية بعض الأمم تظهر في كتب التاريخ متأثرة بتغير كبير – حد تأثير الحضارات بعضها في بعض.

بينا في غير هذا المكان كيف أن الأمم الراقية لا تستطيع أن تخضع الأمم التي هي أدنى إلى حضاراتها، وأثبتنا أن أكبر العوامل التي تستخدمها أوروبا في ذلك الغرض من تربية ونظامات ومعتقدات غير كافية بالمرة لإحداث هذا الانقلاب وحاولنا إيضاح أن جميع عناصر المدنية صادرة عن مزاج عقلي خاص يتكون بالوراثة مدى الزمن الطويل، وأن من المستحيل تغيرها إلا بتغير ذلك المزاج، وأن هذا من صنع العصور لا من عمل الفاتحين، وأنه لابد من قطع مراحل متتالية حتى

تنتقل الأمة من درجة الانحطاط إلى درجات الرقي كما كان ذلك حال الأمم المتبربرة التي حطمت الحضارة الإغريقية الرومانية. ومن يحاول أن يتخطى بالأمة تلك المراحل من باب التربية فإنما يعمل على تخريب آدابها وتشويش قوتها العاقلة والسقوط بها إلى مستوى أحط من الذي كانت بلغته من ذاتها قبل ذلك.

والاستدلال الذي استعملناه في جانب الأمم المنحطة يصدق أيضاً في جانب الأمم الراقية، فإذا صحت النظريات التي شرحناها في هذا الكتاب صح أن الأمم الراقية لا تستطيع أن تغير حضارتها دفعة واحدة، بل يلزمها أيضاً أن تنتقل في ذلك مرحلة بعد أخرى وإن انقطع أدوار التحول دوراً دوراً، وقد يظهر أن أمماً راقية تركت ديناً بدين وبدلت نظاماً بنظام واختارت لغة دون لغة وفنوناً جديدة غير ما كان لآبائها من ذلك، ولكنها في الواقع لم تصل إلى هذا الانقلاب إلا بعد أن تكون حورت ما اتخذته تحويراً كلياً على مهل وصقلته حتى جعلته موافقاً لمزاجها العقلي.

والظاهر أن التاريخ يناقض هذه النظرية في كل صفحة من صفحاته، فكم نرى فيه أمماً غيرت عناصر مدنيتها واتخذت لها ديناً ونظامات ولغة غير التي كانت لها فمنها من تركت دين آبائها الأولين واعتنقت المسيحية أو البوذية أو الإسلام ومنها من حورت لغتها تحويراً كلياً ومنها من قلبت نظاماتها وفنونها رأساً على عقب.

وبلوح أنه يكفي قيام بطل من الفاتحين أو المرسلين أو أن يأخذ الأمة شيء من الهوس ليحدث مثل ما تقدم من الانقلاب.

غير أن التاريخ بروايته هذه الانقلابات لم يخرج عن القيام ببعض وظائفه أعني خلق الخطأ وتأييده لكن إذا دققنا النظر في هذه التغييرات المدعاة رأينا أن الذي تغير في الواقع إنما هي أسماء الأشياء أما المسميات المختبئة تحت الألفاظ فحية ترزق وهي لا تتغير إلا ببطء عظيم.

وحتى نبين ذلك ونوضح أيضاً أن التغيير يختمر رويداً رويداً من وراء هذه التسميات ينبغي أن نستقرئ عناصر كل حضارة بذاتها في أمم مختلفة. أعني أننا نجدد وضع تاريخها. وقد حاولت هذه العمل الشاق في أجزاء عدة فلا يسعني أن أعود إليه هنا ولذلك أجترئ عن جميع العناصر بواحد منها وهو الفنون.

سأفرد لبيان التغييرات التي تطرأ على الفنون فصلا خاصاً وأريد قبل ذلك أن آتي هنا على طرف من التغيرات التي تلحق ببقية العناصر لأبين أن النظرية التي تصدق على أحدها تصدق أيضاً على البقية. وأنه كما أن فنون كل أمة تناسب مزاجها العقلي فالنسبة أيضاً موجودة بين ذلك المزاج وبين اللغة والنظامات والمعتقدات وهكذا، وأنه بناء على ذلك يتعذر تغيرها دفعة واحدة وانتقالها من أمة إلى أخرى[١١].

(١١)لن أذكر هنا مثال اليابان فقد كتبت عنه قبل الآن ولربما عدت إليه في وقت آخر إذ يتعذر أن تضم بعض الصحائف مستفيض القول على مسألة طاش حكم عظماء السياسيين فيها وتبعهم في خطأهم مع الأسف بعض قصار النظر من الفلاسفة لأن نفوذ الانتصارات الحربية ولو على همج متوحشين لا يزال عند بعض الأفهام دليلا على مقدار مدنية الغالب مع أنه من السهل تدريب جماعة من الزنوج على النظام الحربي الأوروبي وتعليمهم كيف يستخدمون المدافع والمكاحل ولكن ذلك لا يغير من انحطاطهم العقلي ولا يتبع ذلك من المستلزمات، وطلاء المدنية الأوروبية الذي يغشي اليابان في هذا العصر لا منزع له من مزاجها العقلي يحال ولكنه حقير مستعار ستمزقه الثورات عما قريب.

ولقد يذهب الظن إلى أن هذه النظرية مناقضة لما يشاهد في الديانات لكن الواقع أن تاريخ المعتقدات هو الذي نجد فيه الأمثلة القاطعة على صحة نظريتنا والحجة الدامغة على أنه يستحيل على الأمة أن تغير عناصر مدنيتها جملة كما يستحيل كذلك على الإنسان أن يبدل من قامته أو لونه.

ليس من ينكر أن الديانات الكبرى كالبرهمية والبوذية والنصرانية والإسلام دخلت دفعة واحدة في شعوب بجملتها فبذلتها بدينها الأصلي حتى خيل أنها استبدلتها فجأة بما وجدت عليه آباءها وبالتأمل في ذلك يتبين أن الذي استبدلته الأمم على الأخص إنما هو اسم دينها القديم لا الدين نفسه والدين الجديد هو الذي تغير حتى يتفق مع المعتقد القديم فلم يكن الجديد في الحقيقة إلا امتداد ذلك القديم.

بل أن التغير الذي لحق بالأديان التي انتقلت من أمة إلى أخرى وصل إلى درجة لم يبق معها من الدين المعتنق حديثاً إلا اسمه وصورته، وأوضح مثال نجده في البوذية فإنها منذ انتقلت إلى الصين ضاعت معالمها حتى ظنها العلماء في أول الأمر ديناً مستقلاً، ولبثوا زمناً طويلاً حتى اهتدوا إلى أنها البوذية حورتها الأمة التي اعتنقتها، وليست البوذية الصينية هي البوذية الهندية أبداً وهذه تخالف كل المخالفة بوذية "نيبال"، وهذه أيضاً تبعد عن بوذية سيلان "سرنديب" فهي في الهند مذهب منالبرهمية التي سبقتها ولا تختلف عنها في حقيقتها إلا يسيراً، وهي في الصين أحد المذاهب التي كانت سائدة في تلك البلاد وبين الأثنين رابطة قوية.

وحال البرهمية حال البوذية سواء بسواء فأهل الهند قبائل شتى وكان لا مندوحة من اختلاف شيعهم في المعتقدات وإن اتحد الدين عند الجميع، فجميع الذين يدينون بالبرهمية يعتقدون أن أهم آلهتهم "فيشنو" و"سيقا"، وأن الكتاب المقدس هو "فيدا" غير أن هذين الإلهين لم يتركا إلا اسميها كما أنه لم يبق من الكتاب المقدس إلا رسمه، وقام بجانب الكل مذاهب لا يحصى عددها.

تشعبت فيها المعتقدات تشعب القبائل والطوائف، فهناك مذاهب التوحيد، وتعدد الآلهة، وعبادة الحيوان والجماد ومجموع الكائنات وعباد الأجداد والشياطين، وهكذا، ولو رجعنا في معرفة الديانة الهندية إلى ما هو مسطور في "الفيبدا" لما وقفنا على طرف يسير جداً من الآلهة والمعتقدات السائدة في تلك الأقطار المتنائية الأطراف، فاسم الكتاب المقدس محترم عند جميع البراهمة.

أما الدين الذي جاء به هذا الكتاب فلم يبق على وجه العموم شيء منه.

وما شذ الإسلام نفسه عن هذه القاعدة على بساطة مذهب التوحيد الذي جاء به، فالفرق كبير بينه في الفرس وبلاد العرب والهند ألا ترى أن تمكن عقيدة تعدد الآلهة عند الهنود سهل عليهم من جعل أكبر الديانات تشدداً في الوحدانية شاملة لآلهة كثيرة، هنالك خمسون مليوناً من الهنود يرون أن محمداً والأولياء ليسوا إلا آلهة أضافوهم إلى ألف آلة مما كانوا يعبدون، حتى أن الإسلام لم يتمكن من إيجاد المساواة بين جميع المسلمين في الهند مع أن المساواة كانت سبباً قوياً في انتشاره، فلا

تزال الطوائف موجودة عندهم كما هي عند إخوانهم غير المسلمين، وفي بلاد الدكن وعند قبائل "دراقان" تغير الدين حتى أصبح لا يعرف أنه الإسلام ولا يكاد يفرق بينه وبين البرهمية بل أنه لا يفترق عنها إلا باسم محمد وبالجامع ولكنهم ألهوا الرسول وعبدوه.

على أنه لا داعي للرحيل إلى الهند لنرى ما دخل على الإسلام من التحوير الكلي بانتقاله من أمة إلى أخرى، بل يكفي التأمل في مسلمي الجزائر، هناك شعبان مختلفان العرب والبرابرة، والأثنان مسلمان، وفرق بين إسلام هؤلاء، وإسلام هؤلاء.

البرابرة لا يعتقدون إلا بزوجة واحدة ولا يعترفون بتعدد الزوجات الواردة في القرآن، وإسلامهم مشوه جداً بعبادة الأوثان التي ألفوها منذ العصور الخالية أيام سيادة قرطاجة.

كذلك لم تنتج الديانات في أوروبا من التحوير بحسب اختلاف الأمم التي أعتنقها، ففيها من حافظوا على لفظ القواعد التي وردت في الكتب، ولكنها صيغ ذهبت كل أمة في تفسيرها مذهباً يخالف مذهب غيرها، فبين الأوروبيين الذين يتسمون بالنصارى من هو وثني صرف كسكان بريطانيا السفلى الذين يعبدون الأصنام وكالإسبانيين الذين يعبدون آلهة من المخلوقات، وكالإيطاليين الذين يؤلهون تماثيل العذراء في القرى، وإذا تعمقنا في البحث وجدنا مذهب البروتستانت آت من اختلاف أمتين متغايرتين في تفسير كتاب واحد، أمم الشمال التي مالت إلى البحث في معتقدها بنفسها وتقرير أمور حياتها، وأمم الجنوب الباقية على حالة من

التأخر في الاستقلال والنظر الفلسفي، وهذا أوضح مثال في بحثنا.

تبعد بنا الشقة إذا أردنا شرح هذه المشاهدات ومع ذلك فانا نمر مروراً على عنصرين آخرين من عناصر المدنية وهما النظامات واللغات لكيلا نضطر إلى الدخول في تقريرات اصطلاحية تخرج عن دائرة هذا الكتاب.

ما صح في جانب الديانات صحيح في جانب النظامات بمعنى أن هذه أيضاً تتحور إذا انتقلت من أمة إلى أخرى، وأني لا أطيل القول وأكتفي بالفات القارئ ليرى بنفسه في زمننا هذا لك تغير النظام الواحد بحسب الأمم التي أقرته مع اتحاد اسمه فيها كلها سواء كان إقراره بالقوة القاهرة أو من طريق الإقناع. وسأشرح ذلك في فصل آخر عند الكلام عن أقاليم أمريكا.

النظامات ثمرة الحاجات، ومما لا شبهه فيه أن إرادة جيل واحد لا يمكن أن تؤثر فيها فلكل أمة ولكل دور من أدوار تطور هذه الأمة أحوال خاصة في كينونتها ومشاعر وأفكار وآثار موروثة، وهذا كله يستلزم نظامات خاصة ولا يحتمل غيرها. واسم الحكومة لا دخل له في ذلك. وما من أمة استطاعت أن تقرر عندها من النظامات أحبتها بحسب ما ظهر لها. ولو أنها أقرتها اتفاقاً وهو ما لا يقع إلا نادراً جداً فإنها لا تقدر على استبقائها. ولقد كانت الانقلابات والتغيرات النظامية التي تمر علينا منذ قرن كافية لإقناع رجال السياسة عندنا بهذه الحقيقة.

بل أني أظن أنه لم يعد أحد يرى أن التغييرات الاجتماعية الهامة

يسهل إحداثها بمجرد إصدار الأوامر العالية بها اللهم إلا ذوي العقول المعوجة من العامة وإلا نفراً من قصار النظر المتعصبين.

والحقيقة أنه لا شأن للنظامات ولا فائدة منها إلا من جهة كونها تقرر التحول الذي حصل في الأخلاق وانقدح في الأفكار فهي تابعة له لا متقدمة عليه. وليست النظامات هي التي تغير من أخلاق الناس وأفكارهم، وليست هي التي تجعل أمة متدينة أو قليلة الإيمان ولا هي التي تعلم الناس حكم أنفسهم بأنفسهم أو تجعلهم يطلبون على الدوام من الحكومة أن تضع في أعناقهم سلاسل وأغلالاً.

وكما أجملت القول في النظامات أجمله في اللغات فأكتفي بالإشارة إلى أن اللغة تتغير وإن كانت مقررة بالكتابة متى انتقلت من أمة إلى أخرى. وهذا هو الذي يجعل فكرة إيجاد لغة واحدة لجميع الأمم عملاً صبيانياً، نعم أخذت أمة "الغول" بعد قرنين من فتوح الرومان اللغة اللاتينية ولكنها حورتها سريعاً بحسب حاجاتها وصبغتها بصبغة معقولها وما زالت بها حتى أخرجت منها اللغة الفرنسية الحاضرة.

يستحيل على شعوب مختلفة أن تستمر على لغة واحدة زمناً طويلاً، وقد تضطر الأمة بعامل الفتوحات أو ضرورة التجارة أن تستعمل لغة غير لغتها الأصلية، إلا أنه لا يمر على ذلك بضعة أجيال حتى تتغير اللغة الجديدة تغيراً كبيراً ويكون التغير أكبر على قدر الخلف بين الأمة الناقلة وبين الأمة المنقول عنها.

ومن المحقق أننا نجد على الدوام لغات مختلفة عند الأمم المختلفة ومن أول الأمثلة على ذلك بلاد الهند لشعوبها شتى ولا عجب بعد ذلك إذا رأينا العلماء يعدون مائتين وأربعين لساناً والفرق بين بعض هذه اللغات وبين البعض الآخر أكبر من الفرق بين اللغة الإغريقية وبين اللغة الفرنسية، وهناك أيضاً نحو ثلاثمائة عجمة، وأهم تلك اللغات أحدثها وهي الهندستان لأن عمرها لا يزيد على ثلاثمائة سنة، وهي مزيج من اللغتين الفارسية والعربية اللتين كان يتكلم بها الفاتحون ومن الهندية التي كانت أكثر اللغات انتشاراً في الأقاليم التي دخلوها. وقد نسى الغالب والمغلوب في زمن يسير لغتها الأولى واتخذا اللغة الجديدة لساناً عاماً موافقاً للشعب الجديد الذي تولد من اختلاط الفريقين كما تقدم.

ولقد أكتفي هنا ببيان المسائل الأساسية وأقول إذ اختلفت الأمم اختلفت معاني الألفاظ وإن كانت متقابلة كأنه لا ترادف فيها وتعذرت ترجمة أحدى اللغتين إلى الأخرى، يفهم ذلك مما هو مشاهد عند الأمة بذاتها في اللغة الواحدة. فالكلمة يكون لها معنى في زمن وبعد قرون يصبح لها معنى آخر.

والمعنى القديم هو الذي كان يجول بخاطر رجال العصر القديم ثم تغير مدلولات الألفاظ بتغير الأفكار والأخلاق والعادات وبقى الكلام حاصلاً بواسطة هذه الألفاظ البالية لتعسر استبدالها. ولكنه لم يعد من نسبة ما كانت تدل عليه وما صارت تدل عليه، وإذا نظرنا إلى الأمم القديمة جداً ممن عرفت عنها حضارة لا نسبة بينها وبين حضارتنا شعرنا بأن ترجمة

لغتهم إلى لغتنا لا تنتج إلا ألفاظاً مجردة عن معانيها الأولى أي أنها لا تنقل إلى أذهاننا إلا صوراً مخالفة كل المخالفة لألتي كانت ترسمها في أذهان القوم السابقين، وهذه النظرية أظهر ما تكون في بلاد الهند فإن الألفاظ عندهم لم تتقرر بطريقة ثابتة كما حصل ذلك عندنا بتقلب الأمم الهندية في أفكارها ولأنه لا قرابة بين معقولها ومعقولنا ولهم كتب مثل "الفيدا" يستحيل أن تترجما وقد خابت مساع كثيرة في هذا السبيل[١٢].

إن من الصعب أن تدرك عذر أفكار من نعيش معهم إذا افترقوا عنا بالعمر والجنس والتربية، وأعز من ذلك منالٌ إدراك أفكار أمة تقادم عهدها مهما بلغ منا العلم بل كلما استزدنا علماً زادنا اقتناعاً بعدم فائدة محاولة الوصول إلى هذه الغاية.

هذه الأمثلة على إيجازها كافية في بيان أهمية التغيرات التي تحدثها الأمم في عناصر المدنية المأخوذة عن غيرها. وقد يخيل أن التغيير عظيم لأن الأسماءتبدل لساعتها ولكنه في الحقيقة شيء يسير، ولابد من تقلب الأجيال وتراكم أثر الوراثة حتى يظهر بوضوح تام أن العنصر المنقول يخالف العنصر الذي حل محله، وليس لهذه التغييرات مآخذ في التاريخ لأنه لا يهتم فيه إلا بالأشياء الظاهرة، وإذ قرأنا فيه أن أمة اعتنقت ديناً غير دينها الأصلي فالذي نفهمه من ذلك هو الدين على ما نعرفه منه حين نظرنا فيه، لا تلك المعتقدات التي انتحلتها تلك الأمة

(١٢)ذكر أحد المتضلعين في العلوم الهندية وهو موسيو (بارت) محاولات ترجمة (الفيدا) ثم قال ويستخلص من هذه الأبحاث العديدة وكثيراً ما تناقضت نتائجها أمر واحد هو قصورنا عن ترجمة هذه الكتب إذا أردنا بالترجمة معناها الصحيح.

في الواقع ونفس الأمر، ويجب لمن يريد التفريق بين الألفاظ والحقائق الواقعة أن يطيل النظر في تلك التغييرات حتى يقف على كيفية سيرها ومقدار نموها.

وعلى ذلك نقول أن تاريخ المدنيات يتألف من هذه الأدوار المتجددة شيئاً فشيئاً، وإذا خيل لنا أنها فجائية وهامة فذلك لأنا نقطع النظر عن التقلبات المتوسطة بين المبدأ والنهاية، ولأنا لا ننظر إلا إلى هذه الأخيرة.

وحقيقة الأمر أن قدرة الأمة على تمثل عناصر المدنية محدودة حداً مهما بلغت من قوة العقل وعلو الملكات، فإن خلايا الذهن لا تتمثل في يوم ما لم يتكون إلا في عدة قرون وما لا يلائم إلا أمزجة تختلف عنها مشاعر وأخلاقاً ولا يتأتى تمثل هذه الموروثات إلا بضم مثلها على مهل، وسنرى عند الكلام على تطور الفنون في أذكى أمة وهي أمة الإغريق في الزمن القديم أنها قطعت أدهاراً حتى خرجت عن نقل مصنوعات الأشوريين والمصريين نقلا ممسوخاً ووصلت بالتدريج البطيء إلى تحفها التي لا يزال الناس يعجبون بصنعها.

ما كان لجميع الأمم التي تعاقبت في التاريخ ما عدا بعض القديمة جداً كالمصريين والكلدانيين إلا أن تتمثل في الغالب عناصر المدنية التي سبقتها بعد أن تكون كل واحدة قد أدخلت عليها من التغيير الملائم مزاجها العقلي، ولولا ذلك لكان تقدم الحضارة بطيئاً جداً ولوجب أن تبتدئ كل أمة تاريخها على استقلال إذا لم يستفيد من التي سبقتها، ألا

ترى أن الحضارة التي أوجدها المصريون أو الكلدانيون منذ سبعة آلاف أو ثمانية آلف سنة كانت موارد استقت منها الأمم التالية واحدة بعد أخرى، فالفنون الإغريقية تولدت من الفنون التي نشأت على ضفاف نهر الدجلة أو نهر النيل، ومن الطراز الإغريقي تولد الطراز الروماني وتأثر هذا بالمؤثرات الشرقية فكان منه الطراز البيزنطي وطراز رومانيا والغوطي على التعاقب. وكلها مختلفات بحسب روح الأمم التي تولدت فيها وإن كانت راجعة إلى أصل واحد.

وما قلناه في الفنون يصدق على بقية عناصر المدنية من نظامات ولغات ومعتقدات، فاللغات الأوروبية مشتقة من لغة كانت مستعملة في العصر الحالي في سهول آسيا، وعلم حقوقنا ابن علم حقوق الرومان وهذا مقتبس مما تقدمه، والديانة الموسوية مشتقة مباشرة من ديانة الكلدان، ثم اختلطت بمعتقدات الآريين فأصبحت ذلك الدين الذي تدين به أوروبا منذ ألفي سنة على التقريب كذلك علومنا ما كانت تصل إلى شأنها الحاضر لولا ما فعلته الدهور الخالية فيها، فعظماء واضعي علم الفلك الحاضر مثل "كوبرنيك" و"كيبلر" و"نيوتن" يتصلون ببطليموس صاحب الكتب التي تداولت في تعليم هذا العلم إلى القرن الخامس عشر.

ويتصل بطليموس من طريق مدرسة الإسكندرية بالمصريين والكلدان، هكذا ينهض من خلال ذلك النقص الفادح الذي نراه في تاريخ حضارة الأمم تطور بطيء في معارفنا نرجع فيه بين العصور الماضية

والأمم الخالية حتى نصل إلى فجر الحضارات الأولى.

والعلماء يحاولون الآن الرجوع بذلك أيضاً إلى الزمان الذي لا تاريخ للإنسان فيه. ومع أن الأصل واحد فما أكثر التغييرات التي أدخلتها عليه الأمم نهوضاً وتأخراً طبقاً لمزاجها العقلي. وتاريخ الحضارة ليس إلا تاريخ هذه التقلبات.

ومما تقدم يتضح أن العناصر الأولية التي تتكون منها مدنية أمة بين الأمم خاصة بتلك الأمة، وأنها خلاصة معقولها وأنها لا تحتمل الانتقال منها إلى غيرها بدون تحوير كبير، وأن الذي يحجب هذا التحوير هي الضرورات اللغوية التي تجعلنا نعبر بألفاظ متساوية عن معان مختلفة ثم الضرورات التاريخية التي تجعل القارئ لا يرى من الحضارة إلا دوريها الابتدائي والذي انتهت إليه دون الأدوار التي تجمع بينهما وسنين بأجل وضوح في الفصل الآتي المختص بتطورات الفنون كيف يتعاقب التحوير على أهم عناصر المدنية بانتقالها من أمة إلى أخرى.

الفصل الثالث

كيف تتغير الفنون

تطبيق النظريات المتقدمة على تطور الفنون عند الأمم الشرقية – مصر – الأفكار الدينية التي ترجع إليها فنونها – ما صارت إليه هذه الفنون بانتقالها إلى أمم أخرى مختلفة عن المصريين كالا يتيو بين والإغريق والفرس – انحطاط الفن الإغريقي في عصره الأول – بطء تطوره – انتقال الفن الإغريقي إلى الفرس وتطوره عندهم وكذا فنون الأشوريين والمصريين – في أن تغيير الفنون راجع إلى الأمة ذاتها لا إلى المعتقد الديني – التمثيل لذلك بالتغييرات الكلية التي طرأت على الفنون العربية بحسب اختلاف الأمم التي دانت بالإسلام – تطبيق هذه النظريات في البحث عن أصول فنون الهند وتقلباتها – في أن الهند والإغريق استبقا من مصدر واحد ولكن اختلاف الأمة جعل لكل منهما فناً لا نسبة بينه وبين فن الأخرى – تقلبات الفنون الكلية التي حصلت في الهند باختلاف الشعوب التي تقطن تلك البلاد رغم اتحاد المعتقدات الدينية.

أوجزت القول في بيان النسبة بين مزاج الأمة العقلي وبين نظاماتها ومعتقداتها ولغتها وإلا لزم لشرح ذلك شرحاً وافياً مؤلفات جمة.

غير أن الشرح الوافي في الفنون أسهل بكثير، أما النظامات أو الدين فمقولة بالتشكيك وقابلة لتأويلات غامضة، والباحث فيها مضطر

إلى تلمس الوقائع المختلفة باختلاف الأزمان والمستوردة في طيات كتب ذهبت روحها، وإلى الاشتغال بالتدليل والنقد والتنقيب، وهو لا يصل بعد ذلك إلا إلى نتائج غير مجمع عليها. وأما المصنوعات الفنية وأخصها المباني الأثرية فإنها محدودة حداً كاملاً وتفسيرها سهل للغاية، فكتب الحجارة أجلى الكتب وضوحاً.

وهي التي لا تكذب أبداً، وهذا هو السبب في أني جعلت لها شأناً هاماً فيما كتبت عن الحضارة الشرقية، ولقد كنت على الدوام في أشد الحذر من الكتب الأدبية فإنها تضل غالباً ولا تفيد إلا قليلاً، وأما الآثار فقلما تضل من يستهدي بها، وهي تفيد دائماً، وهي أصدق حفيظ على فكر الأمم التي بادت، وإنا لنبكي من أولئك الاختصاصيين الذين عميت عقولهم فلا يبحثون فيها إلا على النقوش، فلنبحث الآن في كون الفنون عنوان مزاج الأمة العقلي، وكيف أنها تتغير بالانتقال من حضارة إلى أخرى.

وسأقصر بحثي على الفنون الشرقية، لأن الفنون الأوروبية وإن كانت لا تخرج عن النظريات ذاتها كما بيناه إلا أن بيان تطورها عند الأمم المختلفة يقتضي توسعاً لا يحتمله هذا الكتاب الصغير.

ولنبدأ بفنون مصر لنعلم كيف تغيرت بانتقالها إلى ثلاث أمم على التتابع وهي زنوج "أثيوبيا" و"الإغريق" و"الفرس".

ليس من بين الحضارات التي ازدهرت في المسكونة كلها ما يتم التدليل عليه بالفنون كحضارة المصريين فإنها ظهرت بوضوح وجلاء

جعلاها خاصة بضفاف النيل بحيث تستعصي على الانتقال إلى أمة أخرى من دون أن تتغير تغيراً كلياً.

خرجت الفنون المصرية وأخصها الأبنية عن خيال خاص وضعته الأمة نصب أعينها مدى خمسين قرناً كاملة. فقد كانت مصر تحاول أن تجعل للإنسان مقاماً خالداً بدل حياته الفانية.

فخالفت مع عداها واحتقرت الحياة، وخطبت ود الوفاة ولم تهتم بشيء اهتمامها بالمومياء الصامتة الشاخصة مدى الدهر من ظلمات مقرها إلى ذلك النقش الهيروغليفية بعينين مموهتين بالميناء وسط وجه ذهبي، فكأنها ترنو في قبرها الفسيح وهي فيه كالقصر المشيد آمنة من عبث الزمان إلى كل ما حنت إليه أيام الحياة مما نقش على جدران السراديب التي لا نهاية لها. فالعمارات المصرية هي أولا وبالذات مباني أحزان ودين، الغرض منها أن تكون مقاماً للموميات والآلهة، لأجل ذلك نقبت السراديب، ورفعت المسلات، ونصبت العمداء، وشيدت الأهرام، ومن أجل ذلك استوت تماثيل أبي الهول على عروشها الصخرية تعلوها سماء السماحة والجلال. وكل شيء في هذه العمارات ضخم مكين، ذلك لأنها كانت تشاد لتبقى، ولو أن المصريين كانوا الأمة الوحيدة التي عرفناها من التاريخ القديم لقلنا أن الفنون أصدق مصدر لروح الأمة التي أوجدتها.

ثم جاءت أمم مختلفة، منها المنحطة كالا بتيوبيين، ومنها الراقية كالإغريق والفرس، وانتحلت عن المصريين وحدهم أو عنهم وعن الأشوريين فنونهم، فما الذي طرأ على هذي الفنون بين تلك الأمم؟ إليك

ما كان شأنها في أحط تلك الأمم أعني في ايتيوبيا.

من المعلوم أن الأمم السودانية انتهزت فرصة قيام الفوضى وحلول زمن الانحطاط في مصر بعد أن خطت شوطاً طويلاً في تاريخها أعني أيام العائلة الرابعة والعشرين فأستولى السودانيون على بعض ولايتها، وأقاموا مملكة كانت عاصمتها أولا مدينة "نباتة" ثم انتقلت إلى مدينة "مروى" ودامت على استقلالها، بضع قرون وقد بهرتها حضارة المغلوب، فأخذت تنقل آثارها وفنونها، وبين أيدينا بعض ما أنتجته بهذا التقليد، ولكنه تقليد فطري ممسوخ في الغالب، لأن أولئك الزنوج كانوا برابرة محكوماً عليهم بمقتضى انحطاطهم العقلي بالبقاء في الهمجية، وهم في الواقع لم يخرجوا منها رغم حضارة المصريين التي دامت تعمل فيهم قروناً عدة، ولا يوجد في التاريخ القديم ولا الحديث ما يدل على أن أمة من الزنوج ارتقت في الحضارة إلى درجة ما، وما وقعت بحكم الاتفاق حضارة راقية في يد أمة زنجية إلا أسرع إليها الانحلال وسقطت إلى درجة تعيسة من الانحطاط، كذا كان شأن الحضارة عند الايتوبيين في الزمن القديم، وكذا شأنها لدى أمة "الهايتي" في العصر الحاضر.

ثم جاءت أمة أخرى ولكنها بيضاء تقيم في عرض آخر وهي أمة الإغريق ونقلت عن مصر وأشور نماذج فنها الأولى في مبدأ الأمر وكان نقلها نقلاً ممسوخاً، وكانت تلك النماذج تأتيها على يد الفينيقيين الذين كانت لهم طرق المواصلات البحرية الجامعة بين الشواطئ وعلى يد أمم أسيا الصغرى أصحاب السيادة على الطرق البرية بين نينوي وبابل.

نعم ليس من ينكر أن الأمر انتهى باليونان فتفوقوا على أساتذتهم، ولكن أبحاث الأثريين في عصرنا هذا دلت دلالة واضحة على شدة قصورهم في مجهوداتهم الأولى، وأنه مرت بهم قرون حتى وصلوا إلى إبراز تحف الفنون التي خلدت ذكرهم إلى الأبد، وأن وصولهم إلى هذه الغاية اقتضى سبعمائة عام حتى احتملوا هذا العبء وصار لهم فن اختصوا بد دون غيرهم من الأمم، وكان تقدمهم في القرن الأخير أكثر من تقدمهم في الزمن السابق كله، ذلك لأن طول الأدوار التي تقطعها الأمم في حضارتها هي الأولى لا الأخيرة.

وأقدم آثار الإغريق الفنية كنوز "ميسين" في القرن الثاني عشر قبل المسيح تدل على أنهم همجاً في تقليدهم مصنوعات الشرقيين، فلم تزل عنها مسحتها الشرقية مدى ستة قرون، فتمثال "أبولون" في "تينيا" وفي "اورخوميا" يشبه التماثيل المصرية شبهاً كلياً، ألا أنهم من ذلك الحين اتسعت خطاهم، وما مضى قرن حتى برزت إلى الوجود تماثيل "فيدياس" و"البارتينون" وهي محدثات فن خلص من مسحة أصله الشرقي وفاقه بعد أن نقل عنه دهراً مديداً.

وكذلك كان الشأن في فن العمارات وإن كان بيان الأدوار التي قطعها أقل سهولة، لانا نجهل ما كانت عليه القصور التي جاء ذكرها في قصة "هوميروس" قبيل القرن التاسع قبل الميلاد.

ولكن الذي ذكره لنا عنها من جدران نحاسية وقمم لامعة الألوان وحيوانات ذهبية وفضية أقيمت في المداخل كالحراس كل هذا يذكرنا

قصور الأشوريين المغطاة بصفائح النحاس والآجر المموه تحفزها ثيران منحوتة في الأحجار، ومع ذلك فأنا نعرف أن مثال أقدم العمد "الدورية" الذي يرجع إلى القرن السابع قبل المسيح موجود في الكرنك وبنى حسن بالديار المصرية، وأن أغلب أجزاء العمد المسماة "يونيه" مأخوذ من عمد كانت للأشوريين.

كما نعلم أيضاً أن هذه الاستعارات كانت تضاف إلى بعضها في أول الأمر ثم مزجت ثم حورت وخرج منها بعد ذلك نوع من العمد مخالفا جداً لأصله.

ثم جاءت أمة مقرها في الطرف الثاني من الدنيا القديمة وهي الفرس وتمثلت الفنون وحورتها كما فعل الإغريق، ولكن التطور لم يبلغ غاية عندها، لأن الأجنبي فاجأها بالفتح فوقفت حركة حضاراتها ولم يترك لها الزمان لإيجاد فنونها إلا قرنين أثنين لا سبعة قرون كما ترك للإغريق، فلم يظهر على وجه المسكونة إلا أمة واحدة أمكنها أن تبرز للوجود فناً خاصاً بها في زمن قصير مثل هذا وهي الأمة العربية.

يبدأ تاريخ الفرس مع "قورش" وخلفائه الذين استولوا قبل المسيح بخمسة قرون على بابل ومصر وهما الوسطان العظيمان اللذان كان مجد الحضارة يشرق منهما على الأمم الشرقية، وأما الإغريق وهم الذين كان الزمان يخبئ لهم مثل ذلك الفتح فما كان لهم ذكر في ذلك الحين، وصارت الدولة الفارسية قطب دائرة المدنية إلى ثلاثة قرون قبل الميلاد أنزلها الإسكندر عن عرشها وحول بذلك مركز المدنية في الدنيا، ولم

يكن للفرس يوم استيلائهم على مصر وبابل فن خاص، فنقلوا عنهما النماذج واستعاروها الصناع، ولما لم تدم دولتهم أكثر من قرنين لم يسعهم الوقت لتغيير الفنون تغييراً جوهرياً، ولكنهم كانوا بدأوا بتحويرها تحويراً كبيراً أبان سقوطهم، ويستدل على هذه التغييرات بأطلال "فرسو بوليس" الباقية حتى الآن، هناك نشاهد الجمع بين فني مصر وأشور وبينهما شيء من فنون الإغريق، ونشاهد أيضاً آثاراً جديدة أخصها عمود تلك المدنية وتاجه ذو الرأسين، وذلك يدلنا على أن الفرس وهي أمة راقية كانت تبلغ درجة الإغريق إن لم يكن في إتقان الصناعة ففي استخلاص طراز خاص بها لو أمهلها الزمان، ودليلنا على ذلك أيضاً آثارهم بعد عشرة قرون، فقد قاست عائلة السلوقيين بعد عائلة الأخميديين الذين أجلاهم الإسكندر عن الملك ثم من بعدهم عائلة "الأرشيديين" وأخيراً عائلة "الساسانيين" الذين قهرهم العرب في القرن السابع بعد الميلاد، ففي عصرهم صار للفرس فن عمارات جديدة، فإذا بنوا أثراً كان له مسحة خاصة لا يمتاز فيها مقتبسة من الفن العربي وفن "الأخميديين" القديم وشيء من فن "الأرشيديين" المنقول عن الفن الإغريقي، أبواب شاهقة تبلغ ذروة البناء ولبن مموهة، وقناطر "ستينية" وغير ذلك، وهذا الفن الجديد هو الذي نقلته أمة "المغول" إلى الهند بعد أن حورته بحسب ما اقتضته طبيعتها.

وفي الأمثلة المتقدمة بيان درجات التحوير التي تدخلها أمة على فنون أمة أخرى، وأنها مختلفة باختلاف طبيعة الأمتين وباختلاف الزمان الذي قطعته الأولى في إدخال ذلك التحوير.

لذلك رأينا أن الفنون سقطت عند أهل ايتيوبيا مع مطاولة الزمان بسبب ضعف مقدرتهم العقلية، وأن الأمة الراقية التي وجدت من الزمان متسعاً كاليونان أمكنها أن تنتزع من الفن القديم فناً جديداً أو أن تتفوق فيه، وأن الأمة التي التي هي أقل رقياً كالفرس ولم يكن لديها الزمن الكافي أظهرت حذقاً في تمثل فنون غيرها وبدأت في تحويرها.

وعندنا غير هذه الأمثلة التي أخذناها في أزمان أغلبها بعيد عنا أمثلة أخرى أقرب عهداً ولها أثار لا تزال بيننا، وهي تبرهن على عظمة الانقلاب الذي تضطر الأمم لإحداثه في الفنون المنقولة إليها، وهذه الأمثلة أكد في الدلالة لأنها مأخوذة عن أمم تدين بدين واحد وإنما تختلف عن بعضها في الجنس وهي الأمم الإسلامية.

لما استولى العرب في القرن السابع من الميلاد على القسم الأكبر من الدنيا القديمة الإغريقية الرومانية وأقاموا صرح تلك الدولة العظيمة التي امتدت على عجل من الأندلس إلى قلب القارة الأسيوية مارة بشمال أفريقيا كله وجدوا أمامهم فن عمارة ذا شخصية كاملة وهو الفن البيزنطي فتمثلوه بادئ بدء في مساجدهم سواء كان ذلك في الأندلس أو في مصر أو الشام كما يشهد به الجامع العمري في دمشق وجامع عمرو في القاهرة وغيرهما مما لا يزال قائماً حتى الآن، ولكن ذلك لم يدم طويلا وما أسرع ما بدأ العرب في تحوير العمارة بحسب البلدان من قرن إلى آخر. وقد شرحنا سلسلة هذا التحوير في كتابنا "مدنية العرب" وهو تحوير كلي للغاية بحيث أنه لا يوجد أدنى شبه بين أثر من آثار عصر

الفتح الأول كجامع عمرو في مصر سنة ٩٤٢ وبين أثر من آثار آخر عهد الدور العربي العظيم كجامع قايد باي بها أيضاً سنة ١٤٦٨، وقد أوضحنا هنالك بالشرح وبالصور أن بين الآثار اختلافاً كلياً في البلاد التي دانت للإسلام كإسبانيا وأفريقيا وسوريا والعجم والهند، حتى أنه يتعذر أطلاق اسم واحد عليها كما يسهل ذلك بالنظر للآثار الغوطية مثلا، لأنها وإن اختلفت بعض الاختلاف لا تخلو من المشابهة.

ولا يمكن أن تكون هذه الاختلافات الكلية في العمارات بالبلاد الإسلامية آتية من اختلاف المعتقدات إذ الدين فيها واحد، ولكنها راجعة إلى اختلاف الشعوب وهذا الاختلاف يؤثر في تطور الفنون تأثيراً جوهرياً كما هو شأنه في أحوال الأمم ذاتها.

وإذا صحت هذه النظرية لزمنا أن ننتظر من بلد تسكنها شعوب مختلفة الأجناس آثاراً متباينة كل التباين رغم أتحاد الدين ووحدة الدولة، وهذا هو الواقع كما يشاهد في الهند، ففي الهند يسهل الوقوف على أمثلة تؤيد ما قررناه في هذا الكتاب، ولذلك أراني أعود إليها حيناً بعد حين.

الهند كتاب تاريخي دونه كل الكتب حكمة وبياناً، فهو البلد الوحيد الذي ينتقل فيه زائره من زمن إلى زمن بمجرد انتقاله من ناحية إلى أخرى، وتتجلى أمامه أدوار الحياة التي قطعتها الإنسانية منذ نشأتها إلى أن وصلت إلى ذروة المدنية، هنالك أشكال التقلبات كلها: فللعصر الحجري مشخصات: ولعصر البخار والكهرباء ممثلات، والحاصل أنه يتعذر على الباحث أن يشاهد أثر عوامل المدنية وسلسلة تطوراتها

بأحسن ما يراه في البلاد الهندية.

كانت لدي مسألة أحاول حلها منذ زمن بعيد هي معرفة أصل الفنون الهندية، فلما طبقت النظريات التي قررتها في هذا الكتاب اهتديت إلى ما كنت أرجو، ولما كان الموضوع غير مطروق إلا يسيراً وهو ما تنطبق عليه أفكارنا في علم النفس المتعلق بالشعوب وجب أن نلخص منه ما تهم معرفته.

لم يظهر للهند أثر في الفنون إلا بعد التاريخ بزمن طويل، فأقدم آثارها لا يبعد عن تاريخنا بأكثر من قرنين مثل عمد "آسوكا" ومعابد "كارلي" و"باهوتا" و"سنش" وغيرها.

وأيام بنيت هذه الآثار كانت حضارة الأمم القديمة أعني حضارة مصر والفرس وأشور أتمت دورتها وظللتها غياهب الاندثار.

وقامت مدنية واحدة مقام كل المدنيات أعني مدنية روما وأصبحت الدنيا لا تعرف إلا سيداً هو روما.

ولقد أمكن للهند أن تقتبس شيئاً كثيراً من تلك الأمم القديمة يوم أخذت تطفو متأخرة بين ظلال التاريخ، إلا أن العزلة التامة التي ساد على الأذهان أنها كانت تعيش فيها وذاتية مبانيها الغريبة التي لا قرابة بينها وبين جميع الآثار المتقدمة عليها جعلتا الباحثين يعتقدون زمناً طويلاً أنها لم تقتبس من ذلك شيئاً.

أضف إلى تلك الذاتية التي لا يجادل فيها أحد ما في الآثار الهندية الأولى من إتقان الصنع والتفوق في الإبداع مما لم تزد فيه بعد ذلك، ولابد أن تكون هذه الآثار المنيفة مسبوقة بتجارب بعيدة الأمد، إلا أن الباحثين تعبوا ولم يعثروا على ما يصلون منه إلى هذه التجارب السابقة وقد اكتشفت في العهد الأخير في بعض الأقاليم النائية المنعزلة بقايا تماثيل تظهر فيها آثار الفن الإغريقي فذهب العلماء المشتغلين بالهند إلى أنها أخذت الفن عن الإغريق.

لكن تطبيق النظريات التي شرحناها في هذا الكتاب وتدقيق النظر في الآثار التي لا تزال باقية حتى الآن حملنا على استنتاج نتيجة تخالف ما ذهب إليه أولئك العلماء، فنحن نرى أن الهند لم تأخذ عن الإغريق فهم وما كان في استطاعتهم ذلك وإن اختلطت بعض الاختلاط عرضاً بحضارتهم، لأن الأمتين كانتا مختلفتين اختلافاً كلياً في الجنس والفكر والحذاقة الفنية إلى درجة يستحيل معها أن تتأثر إحداهما بالأخرى، والبحث في الآثار المنثورة في الهند يؤدي إلى أنه لا نسبة بين الفنين، فبينا تشاهد آثارنا ملأي بما ينم عن فنون الإغريق لا يمكننا أن نرى شيئاً من ذلك في الآثار الهندية، بل إن البحث السطحي يرشدنا إلى أن الأمتين مختلفتان كل الاختلاف بحيث لم يوجد في العالم أمتان اغترقا أقول تنافرتا كما تنافرت الهند والإغريق، وتزداد هذه المشاهدة وضوحاً كلما تقدمنا في البحث في آثار الهند وفي الأطوار النفسية للشعوب التي أقامتها، إذ يتبين إن روح الأمة الهندية روح خاصة بها ومستقلة عن غيرها استقلالا يتعذر معه تأثرها بمؤثر خارجي مهما طالت سدته يبقى

سطحياً وعرضياً فكأنما بين شعوب الهند على اختلافها وبين بقية الأمم فروق تبلغ في ضخامتها تلك الفواصل الطبيعية الموجودة بين بلادهم وبين بلاد المسكونة الأخرى، الروح الهندية مستقلة استقلالا تاماً ومهما كان النموذج الذي تلجأ الضرورة إلى تمثله فإنه ينقلب حتماً فيصير شيئا هنديا. حتى أنك لتجد تلك الروح الغريبة التي لا تلبث أن تقلب حقيقة الآثار بادية في العمارة حيث يصعب إخفاء الاستعارة. ومن الجائز حمل معماري هندي على تقليد نصب إغريقية. إلا أنه لا يلبث أن يقلبها فتراها من أول نظرة نصباً هندية بل لا تزال تشاهد هذا التغير في أيامنا مستمراً مع قوة النفوذ الأوروبي. فإذا أعطيت إلى صانع هندي نموذجاً أوربياً أيا كان ليصنع نظيره رأيته يحافظ على هيئة العامة ولكنه يبالغ في صنع. بعض أجزائه ويزيد في زخرفه وهو يغيره ويبدله. وفى المدة الثانية أو الثالثة يكون قد جرده من كل مسة أوروبية وجعله هندياً صرفاً.

وأهم صفة يمتاز بها فن العمارة الهندي هي شدة الإكثار من الجزئيات والتعقيد في التركيب على عكس الفن الإغريقي الممتاز بالبساطة من غير نقص. وتلك الصفة موجودة أيضا في صناعة الأدب عند الهنود وهذا هو الذى يجعل الفنين متقاربين. وبالتأمل في الفن الهندي يتبين الارتباط الشديد بين المصنوعات الخزفية وبين مزاج الأمة العقلي. وهى أفصح لساناً لمن عرف كيف يستنقطها.

ولو فرضنا أن الهنود انقرضوا كما انقرض الأشوريون لدلتنا النقوش البارزة في معابدهم وتماثيلهم ومبانيهم الأثرية على ماضيهم. ولعلمنا منها

على الأخص أنهم لشدة خيالهم وفقدان ملكة النظام فيهم لم يتأثروا أقل تأثير بما برع الإغريق فيه من حسن الترتيب وشدة الوضوح. ولفهمنا أيضا السبب في أن أثر الإغريق فيهم لم يكن إلا عرضيا لا يتعدى المحل الذى أخذه عندهم في مبدا انتقاله. وقد توصلنا بالتأمل في آثارهم إلى أن نؤيد بالأدلة القاطعة صدق الحدس الذى يتحصل عند من لا يعرف الهند ومعقولها إلا معرفة إجمالية. إذ ثبت من البحث الدقيق أن ملوك الهند كانوا على ارتباط مع ملك الفرس "الارخيديين". وكان اثر الإغريق باديا في حضارة الفرس. وأن ملوك الهند حاولوا مرات عديدة وعلى الأخص في القرنين الأولين للميلاد إدخال الفنون الإغريقية عندهم ولكنهم لم يتمكنوا من استيفائها يل ما لبثت أن اندثرت بزوال الملك من يد الذين نقلوها. وذلك للتنافر بين الفنون وبين مزاج الأمة العقلي فلم تكن تقبله إلا بقاهر السلطان. بل أن التنافر بلغ حدا تعذر معه أن تتأثر الفنون الأهلية بالفنون الإغريقية في أيام أولئك الملوك أنفسهم لأننا لا نجد في آثارهم التي شيدوها في ذلك العصر ولا في التي بعدها كالمعابد الموضوعة تحت الأرض أثرا لفن الإغريقي. وليس ذلك الأثر بالشيء الذى تتعسر مشاهدته. فترى المجموع هنديا صرفا ولكن بعض الجزيئات وعلى الأخص الفرش تدل على أنها نسقت بيد صانع إغريقي. وكما ظهرت الفنون الإغريقية فجأة في بلاد الهند اختفت منها فجأة لما بينها وبين ميول الأمة من التباين. وهذا يدل على أنها كانت مجلوبة الهيا بقاهر الملك ولأن العادة في اندثار الفنون عند الأمم ليست كذلك. بل الفن يتحور ويتحول ويبقى أثر الجديد مشاهدا في القديم. أما الفن

الإغريقي فانه جلب جمة إلى الهند واندثر مرة واحدة وكان اثره مفقود كأثر المباني الأوربية التي يقيمها الإنجليز في تللك البلاد منذ مائتي عام وعدم تأثير الفنون الأوربية في الهند مع خضوعها لحكومة تامة السلطان منذ قرن شبيه بعدم تأثير الفن الإغريقي فيها قبل ذلك يألف وثمانمائة عام. فليس من ينكر حينئذ أن هناك تنافر في تصور التنسيقات الفنية. بدليل أن إقليم الهند كلها قلدت فنون العرب وهم غرباء عنهم كالأوروبيين. حتى في الأقاليم التي لم يصل أثر العرب الهيا قد لا تجد معبدا ليس فيه شيء من زخرف العرب. نعم يوجد الآن كما وجد في الأزمان البعيد عنا أيام حكم الملك "كانشيكا"راجاوات منهم راجا "جفاليور" خلبتهم عظمة القوة الأوربية فشادوا لأنفسهم قصورا أوربية على الطراز الإغريقي اللاتيني. ولكن هذا الفن الرسمي بقى كما كان أيام "كانشيكا" بمعزل عن الفن الأهلي من دون أن يؤثر فيه ويستنتج من ذلك أن الفن الإغريقي والفن الهندي عاشا معا جنبا لجنب في الماضي كما هو الحال في الفن الأوروبي والفن الهندي في الزمن الحاضر ولم يتأثر أحدهما بمجانبته. فلا يوجد بين أثر واحد من آثار الهند الحقيقية وبين اثر إغريقي شبه في المجموع أو في الأجزاء ولو من بعيد جدا. ذلك أمر يستوقف المتأمل في آثار الهند. ولا شك في أن سببه التنافر بين روح الأمتين كما قدمنا لا عدم أهلية الهنود الفطرية في تمثل فن اجنبي. لأنهم تمثلوا وصوروا من الفنون ما وافق تلك الروح.

دلتنا المشاهدات المعمارية التي جمعناها أن الهنود اقتبسوا الفنون في مبدأ الأمر من الفرس الذين ورثوا حضارة الأشوريين والمصرين لا

الذين كانوا في عهد الملوك "الاخيديين". ومن المعلوم أنه لما فرق الإسكندر شمل الملوك "الاخميديين" سنة **٣٣٠** قبل الميلاد كان للفرس حضارة زاهرة قبل ذلك بمائتي عام. نعم أنهم ما كانوا اهتدوا إلى طراز جديد في الفنون ولكن مزج فنون مصر وأشور كان قد أخرج لهم صنعا بديع المثال. ويستدل على ذلك بآثار "برسويوليس" الباقية إلى يومنا هذا حيت نشاهد المداخل المصرية الضخمة والثيران الأشورية ذات الأجنحة. وكذا بعض جزيئات من الفن الإغريقي. وكل هذا يحمل على القول بأن فنون الحضارة الكبرى في ذلك الزمان اجتمعت في تلك البقعة الأسيوية الصغرى.

إذن اخذ الهنود الفن عن الفرس. ولكن الذى أخذوه هي فنون الكلدان ومصر لأن الفرس إنما استعاروا تلك الفنون ولم يغيروها

والبحث في أثار الهنود يرشد إلى المصدر الذى استقوا منه في بادئ الأمر. وذلك يجب لمن يريد الوقوف على هذه الاستعارة أن يوجه نظره إلى أقدم آثارهم لان الروح الهندية ذاتية إلى درجة لا تجعلهم يبقون زمنا طويلا على طراز لم يكن لهم حتى يبدلوه ويصير مخالفا للأصل مخالفة تامة والسبب في أن الهند قصرت عن الأخذ من فنون الإغريق وأخذت عن الفرس بسهولة كبيرة كون فنون هذه الأخيرة ملائمة لمزاجهم العقلي دون الأولى. لأن الآثار الإغريقية بسيطة الشكل قليلة الزخرف فلا تعجب الهنود بخلاف الآثار الفارسية وكانت آثار الأشوريين التي دامت في أيام "الاخميديين" لا تزال بادية فيه مثل مداخل المساجد الهائلة ولا

سيما الأجر المموهة التي كانت تصفح به وذلك من بقايا حضارة الكلدان و الأشوريين. وقد تمثل الهنود هذه الفنون لأنها كانت توافق ميولهم وأما الفن الإغريقي القديم والفن الأوروبي في هذا العصر فانهما يجافيان مشاعرهم وينابذان ميولهم. ومن أجل هذا لم يكن لهم فيهم من أثر.

ثبت حينئذ أنه لا صلة بين الهند والإغريق من حيث الفنون كما يذهب علماء العمارة إلى يومنا هذا. وإنما ترجع صلتهم إلى مصر أشور من طريق الفرس فالهند ما اقتبست من الإغريق ولكن الأمتان استقاه من ينبوع واحد على طول الدهر مصر وأشور. استقى منه الإغريق على يد الفينيقيين وأهل آسيا الصغرى. واستقى منه الهنود على يد أهل فارس. فحضارة الإغريق وحضارة الهند فرعان من نهر واحد. إلا أن كل فرع جرى مجرى خاصا فاختلف عن أخيه كما اختلف روح الأمتين

ولما كانت الفنون مرتبطة بمزاج الأمة العقلي وكان الفن الواحد يتغير ذلك باختلاف الأمم التي تستصنعه لزم أن تختلف الفنون عند الهند باختلاف شعوبهم رغم الوحدة الدينية. والواقع كذلك كما تدل عليه آثار كل ناحية. والتباين شديد جدا بين تلك الفنون. حتى أننا لم نجد بدا من ترتيبها بحسب الأقاليم أعنى بحسب الشعوب لا بحسب المعتقدات السائدة في أهلها. لا مشابهة بين آثار الشمال وآثار الجنوب مع كونها شيدت كلها في عصر واحد بين قوم متحدين في الدين. والتباين موجود حتى في زمن المسلمين أيام كانت الهند قاطبة تخضع لحكومة واحدة بلغت النهاية في القوة والسلطان. ترى الآثار الإسلامية المحضة مختلفة

عن بعضها عظيما بحسب الأقاليم التي شيدت فيها. فالشبه ضعيف جدا بين مساجد "أحمد أباد" و"لاهور" و"اكره" و"بيجا يور" وكلها تقام فيها عبادة واحدة. بل أنه أضعف من الشبه بين آثار "نهضة المعارف" و الآثار "الغوطية" بأوروبا

وليس التباين في الهند قاصرا على الآثار بل هو موجود أيضا في التماثيل بحسب الإقليم سواء كان من جهة الشك أو من جهة الصنع كما يظهر ذلك في نقوش "سانش" البارزة وتماثيلها. وفى تماثيل "برهات" وكلها مصنوعة تقريبا في زمن واحد. وهو أظهر في مصنوعات ولايتي "أوريسا" و"يوندلفند" أو في "ميسور" والهند الجنوبية. وهو ظاهر أيضا في أقل المصنوعات الفنية وليس من يجهل ذلك. وأقل خبرة تكفى لتمييز علبة من الخشب المحفور صنع "ميسور" ومثلها من صنع "غزرات" أو حلية من حلي "أوريسا" ومثلها من صنع ساحل "بومباي"

ولا شبهة في أن عمارة الهند دينية قبل كل شيء مثل غيرها من عمارات الشرق ولكن مهما عظم أثر الدين ولا سيما في الشرق فأثر الأمة أكبر

ذلك الروح الذى يجرى بالأمم إلى غاياتها يجرى بالديانات أيضا إلى مصائرها كما يؤثر في النظامات وفى الفنون. وهو أمامنا في كل عنصر من عناصر المدنية يتناوله بحثنا. وهو القوة التي لا قوة فوقها أثره قوة على قدر ألوف الأجيال التي كونته. انه خلاصة أفكار تلك الأجيال

الباب الثالث

تاريخ الأمم باعتباره مشتقا من أخلاقها

الفصل الأول

كيف تصدر النظامات عن روح الأمة

تاريخ كل أمة مشتق على الدوام من مزاجها العقلي – أمثلة مختلفة – بيان أن نظامات فرنسا السياسية منتزعة من روح الشعب – في أن حقيقتها ثابتة وأن تغيرت في الظاهر– في أن جميع أحزابنا السياسية ترمى إلى غرض واحد – صبغتها و أسماؤها – في أن مذهبهم هو حصر السلطان وجمعه وقتل الحركة الذاتية في مصلحة الحكومة – في أن الثورة الفرنسية إنما قامت بتنفيذ خطة الحكومة الملوكية – في أن نظامات الأمم منتزعة على الدوام من خلقها الملي.

إنما التاريخ من الجهة العمومية عبارة عن شرح مجموع ما ولده روح الأمم فهو مشتق من الروح كما أن أعضاء النفس في الأسماك متولدة من حياتها في الماء. ومن جهل مزاج الأمة العقلي.

كان تاريخها في نظره مجموع حوادث مضطربة ناموسها الاتفاق، ومن وقف على ذلك الروح تجلى له أن حياة الأمة نتيجة طبيعية لازمة لخلقها النفسي. ومهما اختلفت مظاهر حياة الأمم تجد أن روح الشعوب هي التي تنسج برد مصيرها.

أجلى مظاهر روح الأمة في نظاماتها السياسية. ومن السهل

تقرير ذلك ببعض الأمثلة.

هذه فرنسا وهى احدى الأمم التي حصلت فيها الانقلابات الكلية. والتي يظهر أن نظاماتها السياسية تغيرت تغيرا تاما في بضع سنين. والأحزاب السياسية فيها على أشد ما يكون من الخلف و التباين. اذا أمعنا النظر في تلك الأحزاب التي لا تهدأ الحرب بينها رأينا للجميع حقيقة واحدة تمثل روح الشعب الفرنسي تمثيلا تاما. فالمتشددون والمتطرفون والملوكيون والاشتراكيون وبالجملة جميع أهل المذاهب المختلفة يجرون تحت أعلام مختلفة نحو غاية واحدة هي فناء الفرد في الدولة. كلهم مهتم بتحقيق حصر السلطان حصرا قيصريا حتى يكون قيادة كل شيء بيد الحكومة وحتى تنظم هي كل شيء، وتفنن حياة الأفراد في أدق الجزئيات. وتغنيهم مؤنة إعمال الفكر وان قليلا. واستخدام الهمة وان يسيرا. وسيان سمى القابض على الزمام ملكا أو إمبراطورا أو رئيسا أو غير ذلك. فغايتها التي ترمى الهيا واحدة، وتلك الغاية هي ممثلة مشاعر روح الأمة[١٣] والأمة لا تقبل غاية أخرى.

فمن جهة تدفعنا حركة أعصابنا وسهولة ميلنا عما استقر حولنا وتصورنا في أن حالنا يحسن وأن حكومة غير التي تسيرنا إلى تغير نظاماتنا في كل حين، ومن جهة ثانية نسمع صوت الأموات يقودنا

(١٣)قال احد أصحاب النظر الثاقب مسيو (ديبونوايت) يمتاز روح الأمة الفرنسية بانه ليس من خلفها أن تنجح في بعض الأعمال الضرورية أو الكمالية المتعلقة بالحضارة من دون أن تحثها حكومتها عليه وتساعدها فيه .

ويقضى علينا أن لا نبدل إلا الألفاظ والظواهر. حتى لقد بلغت قوة تأثير روح الشعب اللاتينية فينا درجة لا نشعر معها ببطلان الخيال الذى نحن فيه.

لا مشابهة في ظاهرة الحال بين نظامنا القديم ونظامنا بعد الثورة العظمى، والواقع أنها سارت في طريق الملوكية من حيث لا شعور. فأتمت حصر السلطة الذى كانوا يعالجونه من بضع قرون.

ولو خرج لويس الثالث عشر ولويس الرابع عشر من قبرهما وشاهدا ما يجرى الآن في فرنسا مما صنعت الثورة لوجها اللوم طبعا إلى ما استعمل من القسوة للوصول إليه. ولكنهما يريانه مطبقالتقاليدهما كل المطابقة، ولا اعترفا انهما لو عهد إلى لأحد وزرائها بتنفيذ تلك الخطة لم كان أسعد حظا في النجاح، ولقالا أن أبعد الحكومات الفرنسية عن الثورة هي حكومة الثورة الفرنسية.

ولتحققا أنه منذ قرن تعاقبت الحكومات المختلفة الأوضاع ولم تحاول واحدة منها تغيير النظام الأول. ذلك لأنه ثمرة التطور المطابق لناموس الطبيعي واستمرار في التقاليد الملوكية الخاضعة لروح الأمة. نعم كان لا مناص لهذين الطيفين المجيدين من توجيه بعض النقد ومن ملاحظة أن استبداد طائفة الحكام الشرفاء بطائفة من المستخدمين أوجد في الحكومة إدارة لا شخصية هي أشد خطرا من سابقتها لأنها العنصر الوحيد الذى لا تناله التقلبات السياسية ولها ماض وسوابق وفيها تضامن طبيعي أخص صفاتها فقدان التبعة، واستمرارها يجعلها في النهاية صاحبة

الكلمة العليا دون سواها، ولعلهما كان يشددان اللوم على هذا اعتبارهما أن اهتمام الأمم اللاتينية بالحرية أقل بكثير من اهتمامها بالمساواة. فهي تحتمل جميع طرق الاستبداد على شرط أن لا تكون صادرة عن فرد واحد، وقد لا يخفى ما ترتب من زيادة القوة الاستبدادية في كثرة اللوائح وتعدد الضوابط التي تضايق الفرد في جميع حركاته، وأنه إذا تم للحكومة ضم كل شيء إلى ذاتها وفرغت من التقنين في جميع المرافق، وجردت الأفكار من كل حركة ذاتية تكون الاشتراكية قد ألقت مراسيها عندنا بلا عناء وبلا حاجة إلى ثورة أخرى ولكنهما كان يريان أيضا بنور الملوكية أو بنور النظر الصائب الذى يعلمنا أن النتائج تزداد بنسبة المعادة الحسابية باستمرار فعل المسببات عينها أن الاشتراكية عبارة عن أرقى درجة في سلم الملوكية. وأن الثورة إنما عجلت بالوصول إلى تلك الذروة العليا هكذا تظهر في نظامات الأمة تلك الأحوال العرضية أتينا عليها في أول الكتاب وهذه النواميس الثابتة التي نحاول تقريرها والأولى تخلق الأسماء وتوجد الظواهر. والثانية هي نبت الخلق الملي وهى التي تقدر مصير الأمم.

وفي مقابل المثال السابق نجد مثال شعب أخر أعني به الأمة الإنكليزية لان مزاجها النفسي مباين لمزاج أمتنا. وبهذا وحده بعدت الشقة بين النظامات في الأمتين بعداً كبيراً.

لا تختلف حقيقية الحكومة في الأمة الإنجليزية سواء كان المستوى على عرشها ملكا كما في بريطانيا أو رئيسا كما في الولايات المتحدة ففيهما ينكمش أثر الدولة إلى أقل حد ممكن، ويعظم أثر الفرد إلى أقصى غاية ممكنة. والأفراد هم الذين يقومون بالأعمال العامة الكبرى

كالمرافئ والترع والسكك الحديدية ودور التربية وهكذا دون الحكومة، وهذا على الضد مما يجرى عند الأمم اللاتينية.

وأجلى مظاهر تفوق الحركة الذاتية يشاهد في أمريكا لأن تلك الحركة ضعفت كثير في إنكلترا منذ خمس وعشرون سنة حيت تغار عليها الحكومة شيئا فشيئا، وليس في استطاعة ثورة ولا قانون نظامي ولا مستبد قاهر أن يحصل للأمة ذلك الخلق الذي تستمد منه نظامها ولا أن ينتزعه منها إن كان لها من قبل وقد قيل مرارا وأعيد تكرارا أن لكل أمة الحكومة التي هي حقا. وما كان من الجائز أن يتصور العقل غير هذا.

وسنين قريبا أنه ليس في استطاعة الأمة أن تهرب من نتائج مزاجها العقل، واذا اتفق لها ذلك فليوم أو بعض يوم. كما يخيل أن الرمال حملتها الريح تخالف ناموس الجذب المغناطيسي ومن أوهم الاعتقاد بأن للحكومات والنظامات أثرا في مصير الأمم بل أن مصيرها كائن فيها هي لا في الأحوال الخارجة عنها وكل الذي يجوز تكليف الحكومة به أن تمثل مشاعر وأفكار الأمة التي ألقت مقاليدها إليها وكل حكومة هي صورة صحيحة لأمتها بحكم وجودها، وما من حكومة ولا نظام يمكن الحكم بصلاحيته مطلقا أو بفساده كذلك. فمن المظنون أن حكومة ملك "الداهومى" كانت حكومة طيبة جدا بالنسبة للامة التي خضعت لسيادته، وأن أرقى نظام أوروبي ربما كان غير لائق بتلك البلاد ذلك ما يجهله لسوء الحظ رجال الحكومات الذين يتصورون أن الحكومة بضاعة يمكن تصديرها للأمم الأخرى، وأن من الجائز حكم المستعمرات على

مقتضى نظامات العاصمة، ولا فرق بينهم في هذا وبين من يحاول إقناع السمك بإمكان البقاء في الهواء بحجة أن التنفس الهوائي ناموس جميع الحيوانات الراقية.

ولاختلاف الأمم في المزاج العقلي يتعذر بقاؤها كلها تحت سلطان نظام واحد زمنا طويلا، وما خضع الإنجليز والايرلندي والسلافي والمجري والعربي والفرنسي لقانون واحد إلا بتكبد المشقات واحتمال ثورات تتجدد من حين ألي حين. لذلك كان مقضيا على الدولة العظيمة الممتدة السلطان على أمم مختلفة بسرعة الزوال، وإذا وجد منها من طالت حياتها كدولة "المغول" ثم الإنكليز في الهند فذلك أولا لشدة التنازع بين الشعوب تلك البلاد من تعددها فلا تفكر في الاتحاد ضد الأجنبي، وثانيا لما للسادة الغرباء من انظر الثاقب والبصر السياسي الذي جعلهم يحترمون عادات الأمم الخاضعة لحكمهم ويتركونهم يعيشون في ظل شرائعهم.

مادة البحث في مزاج الأمم العقلي كبيرة لو استقصيناها لكان لنا من ذلك كتب عدة، ولتبدل التاريخ كله من بدايته، وبرز في ثوب لم يعرفه الناس حتي الآن، وعندي أنه كان يجب اتخاذ درس هذه المادة قاعدة في السياسة والتربية. فقد يكون ذلك عاصما من خطأ كثير ومانعا من تعدد الانقلابات لو تيسر للأمم أن تهرب من المقدور لها بمقتضى روحها الملي، ولم يخفت على الدوام صوت العقل أمام ذلك الصوت القاهر. صوت من في القبور.

الفصل الثاني

تطبيق النظريات السابقة على تطور الولايات المتحدةبأمريكا والجمهوريات الإسبانية الأمريكية

الخلق الإنجليزي – كيف تكون الروح الأمريكي – صعوبة التحول الناشئ من أحوال المعيشة – تحتم فناء العناصر المنحطة – الزنوج و الصينيون – السبب في رقي الولايات المتحدة وانحطاط الجمهوريات الإسبانية الأمريكية بالرغم من اتحاد نظامات الجهتين – في أن الفوضى التي وقعت فيها الجمهوريات الإسبانية الأمريكية نتيجة لازمة لانحطاط الشعب

تبين من الملاحظات الموجزة التي تقدمت أن نظامات الأمة مستمدة من روحها وأنه اذا سهل عليها تغير صورتها فهي لا تقدر على تغير حقيقتها. الأن نريد أن نبين بأمثلة جلية مقدار تسلط هذا الروح على مصير الأمة، وأن شأن النظامات في ذلك شأن لا يذكر[١٤]، وانى أرجح في هذه الأمثلة إلى بلد يعيش فيه جنبا لجنب في أحوال لا تكاد تختلف عن بعضها من حيث البيئة شعبان أوروبيان متحضران ذكيان ولا يختلفان عن بعضهما إلا بالخلق، وأعني به البلاد الأمريكية. هذه البلاد مكونة من

(١٤)ترك الاجتماعي الكبير(هربرت سبنسر) في مؤلفاته الكبيرة الكلام على تأثير الخلق في مصير الأمم وجرته نظرياته الجميلة بادئ الأمر إلى حسن التفاؤل. فلما رأى في شيخوخته أن يعير الخلق التفاته غير حكمه تغييرا ياما وبدله برأي كله تطير، ورأيه الأخير ظاهر في خطاب نشر حديثا متعلق

قارتين بنهما برزخ، ومساحة أحداهما تقرب من مساحة الأخرى، والأرض متشابهة في كليهما، وقد فتحت احدهما واستوطنها أمة إنجليزية، وأقامت في الثانية أمة إسبانية، والأمتان تعيشان تحت نظام جمهوري متشابه لان جمهوريات الجنوب نقلت إليها نظامات الولايات المتحدة، وليس هناك ما تستعين به على ادراك سبب التباين بين حال الأمتين إلا الاختلاف الجنسي. فلننظر أثر ذلك ونبدأ بذكر مجمل من صفات الشعب الإنكليزي السكسوني الذى يسكن الولايات المتحدة. فهو أشد شعوب الأرض على التقريب وحدة وتماثلا ومن السهولة جدا تعريف مزاجه العقلي في مجموعه

ببلاد" تندال" ونقلته مجلة المجلات واليك شيئا منه "لقد ضعف إيماني كثيرا في السنين الأخيرة بالنظامات الحرة بعد أن كان متينا، ورأى أننا نتقهقر إلي نظام تقبض علينا فيه يد من حديد ويمثله الاستبداد الإداري الذي تنظمه الاشتراكية ثم الاستبداد العسكري الذي سيخلفه اذا لم يعجل به إلينا الإضراب الاجتماعي"

أخص ما يتميز به هذا المزاج من حيث الخلق قوة إرادة فلما كانت لأمة من الأمم اللهم إلا الأمة الرومانية في الأزمان الخالية، وعزيمة لا تمارى، وهمة عالية، ومقدرة على النفس كاملة، واستقلال يبلغ حد الخروج عن المدنية، ونشاط قدير، ومشاعر دينية شديدة، وأدب ثابت ومعرفة واجب تامة.

وأما من جهة الذكاء فلا يسهل بيان صفات مميزة خاصة أعني

عناصر ممتازة يتمنع وجودها في الأمم المتحضرة الأخرى، وغاية ما يمكن ذكره أن هذا الشعب ذو تصور صحيح بسمح لصاحبه بإدراك الجهة العلمية في المحسوسات ولا يضل به في أبحاث وهمية وبعبارة أخرى ذوق شديد الحس بالواقع وضعيف بالنسبة للنظريات الكلية. ثم شيء من ضيق العقل يمنع من الالتفاف إلى الجانب الضعيف في المعتقدات الدينية ويجعل هذه المعتقدات فوق المناظرات. يضاف إلى هذه الصفات العامة أمل قوى في رجل عرف سبيله في الحياة واعتقد أنه ليس له أن يبدله بأحسن منه رجل عرف ما عليه لوطنه أهله وربه. يبلغ منه الأمل درجة حقرت في عينه ما هو غريب عنه. والواقع أن احتقار الأجنبي وعاداته فاق في الإنجليز ما كان عند الرومان من ذلك للبرابرة أيام عظمتهم فهم لا يراعون ناموس الأدب الأجنبي، ولا تجد بين ساسة الإنجليز واحدا لا يرى جواز استعمال أمور في جانب أمة أجنبية لو أتاها في بلاده لا نزلت به السخط من كل ناحية ولا شبهة فب أن ذلك الخلق منحط في نظر الفلسفة ولكن فائدته كبيرة في رقي الأمة وتقدمها. فهو احدى قوى إنجلترا كما أشار إليه القائد الإنجليزي "ولسلي" ولقد أصاب القائلون في رفض الإنجليز بناء نفق تحت بجر المانش يسهل المواصلات على الفارة الأوربية بأن الإنجليز يهتمون اهتمام الصينيين بمنع كل تأثير أجنبي من الدخول إلى بلادهم.

جميع الصفات المتقدمة موجودة في طبقات الأمة كلها فما منها إلا وله أثر في عناصر المدنية الإنجليزية. يظهر ذلك لكل من زار بلادهم ولو بضعة أيام. يرى الحاجة إلي المعيشة الاستقلالية بادية في مسكن

أحقر أجير. فهو مسكن صيق بالضرورة ولكنه منعزل لا يضايقه قرب الجوار. ويراه في محطات السكك الحديدية حيث يتمشى الناس دائما ولا يقفون متكأكئين كقطيع الغنم المستسلم خلف حاجز مخفور بالرقباء كأنما هم يسهرون على صون أولئك القوم من الخطر لأنهم لا يجدون من أنفسهم حيطة يتقون بها دهس العربات. يرى عزيمة الشعب بادية في عمل الأجير الشاق كما يراها في عمل التلميذ ترك لشأنه فطفق يتعلم السير في الحياة وحده. وقد صار يعلم أنه من أحد يهتم بمصيره فيها إلا نفسه. يراها في عمل الأستاذ يهتم قليلا بالتعليم ويفرغ جهده في تربية الأخلاق لاعتبارها عنده في حركة العالم[١٥] واذا ألقى نظرة في الحياة العمومية وجد أن حركة الأفراد الأتية لا قوة الحكومة هي التي تقوم بأغلب الأعمال سواء كان المراد إصلاح مستشفى القرية أو إنشاء مرفأ بحري أو سكة حديدية فإذا تعمق في النظر تحقق أن هذه الأمة رغم عيوبها التي يراها الأجنبي لأجلها أشد الأمم جفاء هي الأمة الوحيدة الحرة بالمعنى الصحيح لأنها هي الوحيدة التي عرفت كيف تحكم نفسها فتمكنت من أن تحدد لكومتها أصغر دائرة ممكنة، وإذا تصفح تاريخها علم أنها أول أمة خلصت من كل سيطرة سيان في ذلك سلطان الكنيسة وسلطان الملوك، فمنذ القرن الخامس عشر كان الفقيه "فور ستيكو"

(١٥)قررت الملكة فيكتوريا مكافأة سنوية لمدرسة (ولنجتون)وعهدت البرنس (ألبير) بتجديد شروط نيلها فقرر أن تهتدى لأرفع التلاميذ أخلاقا لا لأكثرهم علما وكانت هذه المكافأة تقرر من دون شك في أمة لاتينية للتلميذ الذى يجيد إلقاء ما حفظه عن الكتب. فتعليمنا كله حتى الراقي منه منحصر في تحفيظ الدروس للتلاميذ وتتأصل فيهم هذه الملكة فيستمرون على إلقاء ما حفظوا بقية حياتهم.

يعارض القانون الإنجليزي بالقانون الروماني المورث عن الأمم اللاتينية وأحد القانونين من عمل الملوك المطلقين ومرماه تضحية الفرد، والثاني من عمل المجموع وغايته حمايته.

أني نزلت أمة هذه صفاتها تعلو كلمتها مهل وتقيم صروح دول قادرة، فإن كانت الأمة التي نزلت فيها ضعيفة لا ينتفع بها كما ينبغي مثل أمة "بوروج"[١٦] انقرضت وبادت، وإن كانت كثيرة العدد كأمة الهنود ولها مقدرة على العمل المفيد أخضعت إلى تابعية قوية، وسخرت إلى العمل لفائدة مواليها إلا يسيراً.

وأخص البلاد التي تظهر فيها آيات رقي الأمة الإنجليزية المنتزع من مزاجها العقلي هي البلاد الجديدة كالأقطار الأمريكية.

نزحت تلك الأمة إلى أقاليم لا زرع فيها ولا يقطنها إلا نفر قليل من المتوحشين، وليس للنازحين ما يستعينون به إلا ما كان من أنفسهم، وكل الناس يعرفون اليوم ما وصلت إليه، فلم يمض عليها قرن واحد حتى ارتقت إلى مصاف الدول العظمى على وجه المسكونة، وقليل من الأمم يستطيع الآن مكافحتها، وأني أوصي بكتب موسيو "روزبيه" و"بورجيه" عن الولايات المتحدة من يريد الوقوف على مقدار ما ينفقه سكان الجمهورية العظيمة من النشاط والحركة الذاتية، هنالك بلغت مقدرة الأفراد غايتها في حكم أنفسهم بأنفسهم، وفي تأليف الشركات لإنفاذ

(١٦)هم هنود أمريكا الشمالية ومعنى هذا الاسم (ذو البشرة الحمراء) سموا كذلك لدلكهم أجسامهم بالتراب الأحمر ولونهم الحقيقي اسمر قاتم.

أعظم المشروعات وتخطيط المدائن، وتأسيس المدارس، وبناء المرافئ، ومد السكك الحديدية وهكذا، وهنالك قل تداخل الحكومة حتى يخيل للإنسان أن ليس من سلطة عامة، بل هو يحار في أن يجد لتلك السلطة عملا في غير أمور الشرطة والسياسة.

أصبح من المتعذر على غير متصف بتلك الأخلاق أن يرقى في البلاد الأمريكية، وهذا هو السبب في أن النازحين إليها لا يؤثرون في شعبها، ومن لم يكن على تلك الصفات فحكمه الزوال لا محالة، ولا يقدر على البقاء في ذلك الوسط إلا الإنجليزي السكسوني، لأنه وسط متشبع بالاستقلال وملؤه العزيمة والإقدام الإيطالي يمون فيه جوعاً، والايرلندي والزنجي يعيشان في أحط الخدم.

الجمهورية الكبرى هي بلا ريب أرض الحرية، ولكنها ليس أرض المساواة ولا أرض الإخاء، فما المساواة والإخاء إلا وهمان لاتينيان لا محل لهما في ناموس الارتقاء وما اشتد أثر التناسل في بلد شدته في أمريكا، فهو فيها لا يعرف للاستثناء باباً، ذلك سر بقاء الأمة على مناعتها ونشاطها، أما الضعفاء ومتوسطي الحال وفاقدي الأهلية فلا محل لهم في الولايات المتحدة، تراهم لضعفهم معرضين حتما للزوال أفراداً وأمماً على السواء، ودليل ذلك عشائر "بوروج" لما أصبحت عديمة النفع بادت رمياً بالرصاص أو قتلاً بالجوع، وعما قليل يلحق بهم العملة

الصينيون الذين يزاحمون أهل البلاد بعملهم[17] وقد أصدروا قانوناً بإخراجهم منها جملة ولكنه لم ينفذ لكثرة ما يقتضيه من المال اللازم لإجلائهم، ولابد من الاستعاضة عنه عاجلاً بالإعدام المنظم، وقد بدأ ذلك في جملة مقاطعات معدنية، وكذلك أصدروا قوانين بمنع مهاجرة الفقراء إلى الولايات المتحدة منعاً باتاً، وأما الزنوج الذين كانوا السبب في الحرب الأهلية التي قامت بين موالي العبيد وبين الذين ما كام يسمح لهم بملكهم فهم محتملون احتمالاً لأنهم لا يزالون إلا أعمالاً ثانوية يعافيها الوطني الأمريكي، نعم هم يتساوون معهم في الحقوق قانوناً ولكنهم فعلا يعاملون كالمجموعات ذات النفع القليل، وسرعان ما يتخلص القوم منهم إذا آنسوا منهم شراً، والأمريكان مجمعون على الاكتفاء في ذلك بالطرق القديمة التي سنها قانون "النش" فأول ما تقع منهم جريمة يتضايق منها الناس يرمونهم بالرصاص أو يشنقونهم، وقد ذكر الإحصاء وهو ناقص جداً أن الذين أنفذت فيهم هذه المشيئة يزيدون على الألف مدى السنين السبع الماضية.

نعم هذه هي الناخبة السوداء من صورة تلك البلاد غير أن شدة بهائها قادرة على احتمال هذا السواد، وإذا أردنا أن نعرف بكلمة واحدة ما بين أوروبا والولايات المتحدة من التفاوت قلنا أن الأولى مثال ما

---

(١٧)هناك قانون يبيح للأمة أن تفعل ما تشاء بأسود تراه مجرماً بعد أن يكون قدم للقضاء وحكم عليه بعقوبة هينة أو برئ أو أنه لم يقدم للحاكم لعدم وجود نص، وعاداتهم أنهم يشنقونه أو يضربونه ضرباً مبرحاً وقد بطلت هذه العادة الآن إلا في الأقاليم الآهلة بالسكان في الولايات الغربية والجنوبية الغربية.

يمكن أن تنتجه الأمة التي قامت فيها الحكومة مقام الفرد، والثانية مثال ما يمكن أن تنتجه همة الأفراد الذين خلصوا من كل ضغط رسمي، وليس لهذه الفروق الكلية منشأ إلا الأخلاق، ومن المحقق أن الاشتراكية الأوروبية لا تجد لها مكاناً تنزل به في البلاد الأمريكية، لأن الاشتراكية آخر دور من أدوار استبداد الحكومة فلا تعيش إلا في الأمم التي شاخت بعد أن خضعت قروناً طويلة إلى نظام أفقدها الأهلية لحكم نفسها.

هذا هو الذي أوجده في أحد قسمي البلاد الأمريكية شعب تغلبت في مزاجه العقلي صفات الثبات ومضاء العزيمة وقوة الإرادة، فللنظر الآن حال بلاد متشابهة بين يدي شعب آخر لأمراء في ذكائه ولكنه مجرد عن الصفات التي شرحنا آثارها.

أمريكا الجنوبية أغنى بلاد الدنيا من جهة حاصلاتها الطبيعية وتبلغ مساحاتها ضعف مساحة أوروبا، وهي أقل سكاناً منها عشر مرات، والأرض هناك لمن يفلح، وهي معروضة على الجميع، والعنصر السائد إسباني، وهي تنقسم إلى عدة جمهوريات، منها "الأرجنتين" و"البرازيل" و"شيلي" و"بيرو" وغيرها، وكلها اختارت نظام الولايات المتحدة، فهي تعيش في حكم قوانين واحدة، ومع ذلك فجميع هذه الجمهوريات بلا استثناء طعمة للفوضى الدموية، والسبب الوحيد هو اختلاف العنصر وفقدان الصفات الأساسية التي رأيناها عند أهل الولايات المتحدة، وبالرغم من خصوبة أرضها تنتابها الخسائر من كل نوع، ويحفها الإفلاس ويقتلها الاستبداد.

من أراد الوقوف على مقدار انحطاط الجمهوريات الإسبانية الأمريكية فعليه بكتاب موسيو "ت. شيلا" فإنه سفر نفيس تجرد واضعه عن الغاية، فيه بيان أن أسباب هذا الانحطاط هو مزاج الأمة العقلي فقد تجردت عن العزيمة والإرادة والملكة الأدبية، وتجردها من هذه الميزة الأخيرة وصل إلى أحط الدرجات المعروفة أوروبا.

ذكر المؤلف المشار إليه مدينة من أهم مدن تلك البلاد وهي "بوينوس أيريس" فقال "أنها لا تليق بسكنى من فيه حبة من الوجدان الحي وأقل ذرة من الأدب"، وقال في جمهورية "الأرجنتين" وهي أقلها انحطاطاً من هذه الجهة "من نظر إلى هذه الجمهورية في معاملاتها التجارية غلاه الخجل من سوء الذمم الظاهر كالشمس في كل مكان".

ما من بلد يستدل فيه على كون النظامات نبت الجنس مثل تلك البلاد وعلى أنه من المستحيل نقلها من أمة إلى أخرى.

والنفس تتوق إلى معرفة ما صارت إليه النظامات الحرة للولايات المتحدة بانتقالها إلى شعب أحط منها، قال موسيو "شيلد" عن الجمهوريات الإسبانية الأمريكية "أنها في قبضة رؤساء لهم فيها من السلطان المطلق ما القيصر روسيا بل أشد من ذلك لبعدهم عن المراقبة الأوروبية، جميع الموظفين من صنائعهم والأهالي ينتخبون البعض كما يشاؤون ولكن لا عبرة بانتخابهم البتة وليس لجمهورية "الأرجنتين" من الجمهورية إلا اسمها، والحقيقة أنها حكومة مطلقة في أيدي أناس اتخذوا السياسة متجراً".

وبلاد البرازيل هي التي كانت نجت من هذا السقوط والفضل في ذلك للحكومة الملكية التي منعت السلطة من الوقوع في مخالب الأهواء، ولما كانت الحكومة حرة بقدر يزيد على ما تقتضيه حالة شعب لا همة له ولا إرادة سقطت هي الأخرى وهوت معها الأمة إلى الفوضى، وبدد رجال الحكومة أموال الأمة في بضع سنين ثم زادوا الضرائب ستين في كل مائة.

وليس سقوط الأمم اللاتينية التي استقرت بالبلاد الأمريكية فاشياً في السياسة وحدها بل ظاهر أيضاً في عناصر المدنية كلها ولا شبهة في أن بقاء تلك الجمهوريات التعيسة متروكة لشأنها ينتهي برجوعها إلى الهمجية، فقد أصبحت التجارة كلها وكذا الصناعة في يد الأجنبي من الإنجليز والأمريكان والألمان.

وأصبحت "فالباريزو" مدينة إنجليزية، ولولا الأجانب لما بقى شيء في "شيلي"، ولولا الأجانب لما بقى لتلك البلاد طلاء المدينة الذي تغتريه أوروبا حتى الآن، وفي جمهورية الأرجنتين أربعة ملايين من البيض أصلهم من الإسبانيين، ولا أدري إن كان يوجد واحد منهم على رأس صناعة ذات أهمية حقيقية بل كل ذلك في يد الأجنبي.

إن في سقوط العصر اللاتيني هذا السقوط المريع لمجرد كونه متروكاً لشأنه ومقارنته برقي العصر الإنجليزي في بلد تجاوره مثاراً للحزن والأسى، ولكنها مشاهدة ليس أصدق منها في الاستدلال على صدق النواميس النفسية التي شرحناها.

الفصل الثالث

في أن تغير روح الأمة يغير من تطورها في الحياة

في أن تغير العناصر الأجنبية يغير روح الأمة ويبدل حضارتها – مثال الرومان – في أن حضارة الرومان لم تسقط بالغارة الحربية وإنما سقطت بإغارة البربر السلمية – في أنه لم يجل بخاطر البربر إسقاط الدولة – في أن غارتهم لم تكتسب شكل الفتح – في أن الرؤساء الفرنك الأولين اعتبروا أنفسهم على الدوام موظفين في خدمة الدولة الرومانية – في أنهم احترموا على الدوام خطورة الرومان وما فكروا إلا في البقاء عليها – في أن عدول الرؤساء البربر في بلاد الغول١٨ عن اعتبار الإمبراطور الروماني رئيساً عليهم لم يبدأ إلا في القرن السابع – في أن تغير الحضارة الرومانية تغيراً تاماً لم يكن نتيجة هدم أسسه وتخريب أساطينه ولكنه ناشئ من أن شعباً جديداً تمثل تلك الحضارة القديمة – غارات العصر الحاضر في الولايات المتحدة – فيما يتهيأ بسبب تلك الغارات من المناظرات الداخلية والافتراق إلى حكومات مستقلة متنافرة – في غارات الأجانب بفرنسا ونتائجها.

تبين من الأمثلة المتقدمة أن حضارة الأمة لا ترجع إلى نظاماتها بل إلى خلفها أعني طبيعة شعبها، وكذلك رأينا عند البحث في تكون الأمم

(١٨)هو اسم بلاد فرنسا قديماً.

التاريخية أن انحلالها ينجم عن التناسل مع الأجنبي، وأن الأمم التي حفظت نفسها من ذلك الانحلال وصانت وحدتها وقوتها هي التي ابتعدت كل البعد عن الاختلاط بالأجانب كأمة "الأربين" في الهند قديماً وكالأمة الإنجليزية في مستعمراتها حديثاً وأن وجود الأجانب وإن قلوا كاف لتغيير روح الأمة لأنه يفقدها القدرة على الدفاع عن خلفها النوعي وعن آثار تاريخها وما صنع آباؤها الأولون.

هذه النتيجة مستخلصة مما قدمنا، وإذا صح أن عناصر الحضارة عنوان روح الأمة صح أن تغير هذه الروح مدعاة لتغير تلك الحضارة، ولنا على ذلك أمثلة كثيرة في الماضي وسيكون الحال كذلك في المستقبل.

أهم مثال صح في هذا البحث تطور الحضارة الرومانية، وقد ذهب المؤرخون إلى أن هذه المشاهدة كانت في الغالب نتيجة إغارة البربر، لكن إذ دققنا النظر علمنا أن الذى أوجب سقوط الدولة الرومانية إنما هي الغارات السلمية لا الحربية، وأن البربر فضلا عن كونهم لم يعمدوا إلى هدم الحضارة الرومانية فأنهم عملوا على احترامها وأفرغوا جهدهم في الانطباع عليها وأدامتها، فحاولوا ضم لغتهم إليهم والقيام على نظاماتهم وفنونهم، وظلوا يستبقون ما ورثوا من تلك الحضارة حتى في عهد آخر الملوك "المير وفيجيين"، وجميع أعمال الملك شار لمان العظيم مصبوغة بهذه الصبغة.

غير أنا نعلم أن مثل هذا العمل مستحيل، لذلك مضى على البربر قرون عديدة حتى تسنى لهم تكوين شعب متحد العنصر نوعاً بواسطة

التناسل ووحدة المعيشة، فلما وجد الشعب الجديد كان له بالضرورة فنون جديدة ونظامات كذلك وإن شئت فقل حضارة جديدة، نعم لم تخلص هذه الحضارة من تأثير حضارة الرومان إلا أن المجهودات التي بذلت لإحياء هذه الحضارة ذهبت إدراج الرياح، فما أفلحت "النهضة العلمية" في إعادة فنونها ولا الثورة في إقامة وزن نظاماتها.

وعلى ذلك ليس من الواقع أن البربر الذين بدأت غارتهم على المملكة الرومانية منذ القرن الأول للميلاد وانتهى بهم الأمر إلى ابتلاعها لم يقصدوا إماتة حضاراتها بل تعمدوا استبقاءها، وعلى فرض أنهم لم يقاتلوا الرومانيين وأنهم اقتصروا على الاختلاط بهم شيئاً فشيئاً والرومان يقلون يوماً عن يوم فإن مجرى التاريخ لم يكن ليتغير ولكانت النتيجة ما رأينا أعني أن مجرد اختلاط البربر بالرومان كان كافياً في إماتة الروح الرومانية وإن لم ينهدم صرح الدولة، وعلى ذلك يصح القول بأن الحضارة الرومانية لم تنقلب دفعة واحدة بل استمرت تتحور على مر الأيام لا لسبب غير وقوعها بين يدي شعوب أجنبية، ونظرة بسيطة في تاريخ غارات البربر تؤيد ذلك.

دلت أبحاث المنقبين العصريين وأخصها أبحاث "فوستيل دي كولانج" على أن غارات البربر السلمية هي التي فوضت أركان الدولة الرومانية لا الغارات الحربية التي كان الرومان يدفعونها من غير عناء بواسطة البربر المقيمين في خدمة الدولة، لأنه منذ عهد الإمبراطورة الأولين تمكنت عادة استخدام البربر في الجيش الروماني، وكانت هذه

العادة تتقوي وتنمو كلما اتسعت ثروة الرومان ومالوا عن الجندية، وفي بضع قرون أصبح الجيش ووظائف الحكومة كلها من الأغراب فكان الجند مؤلفاً من "الوزغوط" و"البرجو نديين" و"الفرنك".

وبحكم تكوين الجيش وإدارة الأقاليم من البربر كان لابد من استقلال الولايات شيئاً فشيئاً، وكذلك كان، غير أن نفوذ الدولة كان بالغاً حداً لم يجرأ معه البربر على أن يقلبوا لها ظهر المجن حتى الذى كانت له السيادة على نفس روما، والدليل على ذلك أنه لما استولى أحد رؤساء البربر على روما سنة ١٤٧٦ وهو "أدواكز" ملك "الهيرول" التابع للدولة الرومانية أسرع فالتمس من الإمبراطور في القسطنطينية الإذن له بتولي حكم إيطاليا تحت اسم "باتريس" ومعناه "سيد" ولم يخالف هذه السنة واحد من أولئك الرؤساء، بل كانوا يحكمون الولايات باسم روما، وما فكروا يوماً في أن ينصرفوا في الأرض أو يمسوا النظامات بتغيير ما، وكان "كلو فيس" يعتبر نفسه موظفاً رومانياً، وكم كان افتخاره لما نال من الإمبراطور لقب "قنصل"، فظل خلفاؤه من بعده ثلاثين عاماً يصدعون بقوانين الإمبراطورة ويرون من المفروض عليهم حمل الناس على احترامها، ودام الحال هكذا إلى القرن السابع حيث اجتزأ الرؤساء من البربر في "الغول" على ضرب السكة وفيها صورهم وكانت لذلك العهد تحمل صورة الإمبراطور، ومن ذلك العهد يصح القول بأن رؤساء البربر لم يعودوا يعترفون برئاسته، وعليه يكون المؤرخون مخطئين في بدئهم تاريخ فرنسا قبل الواقع بمائتي عام وإضافتهم عشرة ملوك إلى عقد ملوكنا.

كانت غارات البربر على روما بعيدة عن مشابهة الفتح لأن الأهالي داموا على أرضهم ولغتهم وشرائعهم مما لا يقع في أحوال الفتح الحقيقي كما حصل في إنجلترا لما فتحها النور ما نديون ومن المظنون أن زوال الدولة الرومانية حصل تدريجياً بحيث لم يشعر به المعاصرون، فكانت الأقاليم متعودة منذ قرن على ولاة يحكمونها باسم الإمبراطور، ولم يستخلص أولئك الولاة الحكم لأنفسهم إلا متدرجين على مهل كبير، فما بدلوا شيئاً بل استمر الحال القديم تحت إمرة جديدة طول عهد "الميروفنجين"[١٩] .

إنما التغير الذي صار كلياً هو تكوين شعب تاريخي جديد، وظهور حضارة جديدة كأثر لازم لهذا الشعب طبقاً للنواميس التي قررناها.

هذا ناموس متجدد الأثر على الدوام ويخال أنه أثبت نواميس حياة الأمم وكأنا نشاهد معه في هذه الأيام غارات سلمية شبيهة بالتي بدلت حضارة الرومان، وقد يخال من انتشار الحضارة في هذا الزمان أن البربر انقرضوا أو أنهم بعدوا عنا وتوسطوا آسيا وأفريقيا فلم نعد نحسب لهم حساباً، ومن المحقق أننا لن نخشى غارتهم علينا ولا خوف منهم من جهة المنافسة الاقتصادية التي قد يحاربوننا بها يوماً من الأيام كما أوضحت ذلك في كتاب آخر، فليس كلامنا فيهم بل الكلام في أن هناك بربراً نحسبهم بعيدين عنا وهم في الواقع أقرب منا الآن من بربر الإمبراطورية الرومانية لأنهم مقيمون بين ظهر انى الأمم المتحضرة، ذلك

---

[١٩]قال موسيو (فوستيل دي كولانج) إن حكومة الميروفنجين تكاد

أن حضارتنا أصبحت متشعبة العناصر مشتبكة الأجزاء وإن الفروق بين الأفراد كثرت وتنوعت كما بيناه من قبل، وأصبح في كل أمة عدد كبير من العناصر المنحطة التي لا قدرة على احتمال حضارة زاد رقيها عن طاقتهم، وهذا التحليل كل يوم في ازدياد، وهو تكون صورة لحكومة الإمبراطورية الرومانية في بلاد "الغول" ولا شيء فيها من حكومة الشرفاء.

وهو يزداد ضخامة شيئاً فشيئاً، وغارته ستكون القاضية على الأمة التي تبلي به.

الآن يركب البربر الجديدون غارات الاغتراب إلى الولايات المتحدة بأمريكا وهم الذين يخشى شرهم على حضارة تلك الأمة العظيمة فلما كانت الهجرة قليلة وكان المهاجرون من الإنجليز كان امتصاصهم سهلاً مفيداً، وتلك الهجرة هي التي أقامت عظمة أمريكا أما اليوم فقد طفح على الولايات المتحدة سيل جارف من العناصر المنحطة وهي لا ترغب في امتصاصهم ولا تقدر على ذلك إن أرادت دخلها من الغرباء ما يقرب من ستة ملايين بين سنة ١٨٨٠ – ١٨٩٠ كلهم على التقريب من الأجراء الغير الراقيين، وهم أجناس شتى وليس في مدينة "شيكاغو" الآن من الأمريكان الربع من سكانها وعددهم "١,١٠٠,٠٠٠" نسمة، ففيها "٤٠٠,٠٠٠" ألماني و"٢٢٠,٠٠٠" ايرلندي و"٥٥,٠٠٠" تشيك وغير هؤلاء، ولا امتزاج بين هؤلاء الأغراب وبين الأمريكان وهم لا يهتمون حتى بلغة وطنهم الجديد، وإنما هناك جاليات تعمل أعمالا ربحها يسير، لذلك هم غير راضيين ولذلك هم

أعداء أهل البلاد، وقد كادوا يحرقون المدينة مدة اعتصاب عمال السكك الحديدية، حتى اضطرت الحكومة إلى أن تعمل فيهم مدفع "المتراليوز" بلا رحمة، ومنهم يخرج دراويش تلك الاشتراكية السمجة التي تهدم العوالي والتي قد يسهل قيامها في أوروبا بسبب ما ألم بها من الضعف ولكنها تنافر طبع الأمريكي منافرة كبرى، وسيكون التنازع الذي تولده هذه المذاهب في الجمهورية العظيمة تنازع عناصر افترقت في تطورها.

والظاهر بالبداهة أن الغلبة لا تكون حليفة البربر في الحرب الأهلية التي ستسعر نارها بين أمريكان أمريكا وأمريكان الأجانب في تلك البلاد، وأن تلك المعركة الهائلة ستنتهي بمقبرة تعيد ذكرى استئصال "السامير"[٢٠] من يد "ماريوس" ولا تختلف عنها إلا في ضخامتها، وإذا تأخرت الحرب واستمرت الهجرة لا يكون الاستئصال تاماً، وربما صارت الولايات المتحدة إلى ما صارت إليه الدولة الرومانية أعني أنها تفترق إلى حكومات مستقلة بعضها عن بعض تنتابها الانشقاقات والحروب كما هو الحال في أوروبا أو في أمريكا الإسبانية.

وليست أمريكا وحدها هي المهددة بهذه الغارات فمن الأمم الأوروبية ما يتوقع لها مثل ذلك أعني الأمة الفرنسية، البلاد غنية، وعدد سكانها لا يزيد، ومن حولها أمم فقيرة سكانها في ازدياد مستمر وهجرتهم إليها أمر محتوم ويساعد على ذلك ازدياد مطالب الأجراء

---

[٢٠] أمة من البرابرة أغارت على بلاد الغول قبل الميلاد بمائتي عام فلاقاها حاكم اسمه (ماريوس) وحاربها حرباً طحنها بها طحناً.

الفرنسيين الذين يلجنون قومهم بذلك إلى قبول الغرباء في الأعمال الزراعية والصناعية، وللنازحين إلينا منافع ظاهرة، فلا هم مكلفون بالخدمة في الجندية، ولا ينالهم شيء من الضرائب الشخصية أو أن ما ينالهم من ذلك يسير جداً لاعتبارهم غير مستقرين وعملهم أقل عناء وأكبر أجراً منه في بلادهم، وليست ثروتنا وحدها هي التي تجرهم إلينا بل لأن البلاد الأخرى تصدر كل حين قوانين قاضية بمنع نزوحهم إليها.

ومما يزيد في خطر غارة الأجانب أن الذين ينزلون بغير أمتهم من أحط الطبقات، وما تركوا بلدهم إلا لتعذر المعيشة عليهم فيها، ونحن نقبلهم على الرحب عملا بمبادئ الإنسانية التي جلبنا عليها ولذلك يزداد عددهم شيئاً فشيئاً كانوا أقل من "٤٠٠,٠٠٠" منذ أربعين عاما فبلغوا الآن "١,٢٠٠,٠٠٠" وصنوفهم تكثر في كل يوم، ولو نظرنا غلى عدد الإيطاليين من بينهم لقلنا أن مرسيليا مستعمرة إيطالية بل ليس للدولة الإيطالية مستعمرة يبلغ عدد سكانها الإيطاليين عدد من يقيم منهم في تلك المدينة، وإذا لم تتغير هذه الحال وتقف حركة الهجرة يصبح سكان فرنسا في زمن قريب ثلثهم من الألمانيين وثلثهم من الإيطاليين فماذا يكون من أمر وحدة الأمة بل من وجودها في مثل هذه الأحوال، وإن أكبر مصائب الحرب أهون عليها من نتائج ذلك وأخفف ضرراً[٢١] لقد

---

(٢١)ليس في قدرة الأمم منع هذه الغارات لأنها مسببة عن مسائل اقتصادية لا حيلة للناس فيها إلا أنه في الإمكان اتخاذ بعض الوسائل لإعاقة نموها كتقرير الخدمة الإجبارية في الجندية بالأليات الأجنبية على كل أجنبي له في البلد سنتان ولا يبلغ عمره خمساً وعشرين سنة وفرض البدل النقدي على من زاد سنه عن ذلك وإلغاء التجنس إلغاء باتاً إلا استثناء وربط ضريبة ربع

كان للأمم الغابرة إلهام صادق في نفورهم من الأجنبي لأنهم كانوا يعلمون أن قيمة الأمة بالوطنيين من أهلها لا بعدد سكانها.

ومن ذلك يتبين لنا أن أس الأسس في جميع المسائل التاريخية والاجتماعية مشكلة العناصر فدونها مشكلة سواها.

الإيراد أو الأجور على كل أجنبي تجنس بالجنسية الفرنسية أم لم يتجنس وكان مقيما في البلاد منذ أقل من خمسين سنة، والنائب الذي يتمكن من التصديق على مثل هذا القانون يستحق أن يقام له تمثال لتخليد ذكره.

الباب الرابع

كيف تتحور الصفات النفسية للأمم

الفصل الأول

أثر المبادئ في حياة الأمم

في أن المبادئ التي تدور عليها حضارة الأمة قليلة العدد – في أن تولدها بطئ وكذا زوالها – في أنها لا تؤثر في سير الأمة إلا بعد أن تعبر من المشاعر – في أنها تكون إذ ذاك جزءاً من الخلق – في أن بطء تطور المبادئ هو السبب في بقاء الحضارة زمناً ما – كيف تستقر المبادئ –في أنه لا تأثير للعقول في ذلك – تأثير التوكيد والنفوذ – تأثير أهل الاعتقاد والرسل – تشويه المبادئ بانتشارها بين الجموع – في أن المبدأ متى استقر أحدث لساعته تأثيراً في جميع عناصر المدنية – في أن الفضل وحدة النظر عند أهل كل زمان وحدة وسط تجعلهم متشابهين في تصوراتهم وأعمالهم راجع إلى وحدة المبادئ فيهم – تأثير العادة والرأي السائد – في أن وطأة هذا الأثر لا تخف إلا في أوقات المحنة عندما تفقد المبادئ القديمة قوتها ولا يستعاض عنها – في أن زمن الوحدة هو الذي يتيسر فيه البحث في الآراء – في أن المذاهب لا تدوم إلا بشرط عدم البحث فيها – في أن الأمم إذا غيرت مبادئها ومذاهبها اضطرت إلى تغيير حضارتها.

بعد أن بينا أن الخلاق النفسية للأمم ذات ثبات مكين وأن تاريخ الأمم راجع إلى هذه الأخلاق قلنا أن العناصر النفسية قابلة للتغيير على

مر الأيام وتعاقب الوراثة كالعناصر الجسمانية سواء بسواء، ونقول الآن إن هذا التغير أم الأسباب في تطور المدنية.

وأسباب التغيرات النفسية كثيرة، منها الحاجة والتنافس في العيش، وتأثير البيئات، وتقدم العلوم والصناعة والتربية، والمعتقدات وغير ذلك، وقد نشرنا قبل الآن كتاباً شرحنا فيه شأن كل واحد من هذه المؤثرات فلا محل هنا للإسهاب في هذا الموضوع[٢٢]، وغنما نختار البعض من هذه العوامل لنبين وجه فعلها وهو ما ستقرره في هذا الفصل وما يليه.

يرشدنا النظر في حضارات الأمم التي دونت في التاريخ منذ القدم أن رقيها كلها كان وفقاً لمبادئ قليلة العدد ولو أن تاريخ الأمم اقتصر على تاريخ هذه المبادئ لما بلغ من الطول ما قد بلغ، فإن الحضارة التي يتولد عنها مدى قرن بأكمله مبدأ واحد أو مبدآن أساسيان في عالم الفنون أو العلوم أو الآداب أو الفلسفة تعد من أبهى الحضارات وأرقاها.

ولا يظهر للمبادئ تأثير حقيقي في روح الأمة إلا إذا اختمرت على مهل ونزلت من أعالي النظر العقلي إلى عالم المشاعر المستقر اللاتنبهيحيث تتكون دواعي الحركة الإنسانية إذ ذاك تصير المبادئ جزءاً من الخلق ويكون لها تأثير في الحياة، لأن الخلق يحتاج في تركيبه إلى تراكم طبقات من الأفكار اللاتنبهية.

إذا اختمرت المبادئ على هذا النحو أصبح أثرها شديداً جداً لأنها

---

[٢٢]الإنسان والجمعية من حيث الأصل والتاريخ جزء (٢) مبحث تطور الجمعيات البشرية.

تفلت حينئذ من تحكم العقل فيها، ألا ترى أن ذا اليقين الذي استوى على قلبه مبدأ ديني أو غير ديني بعيد عن التأثر بالمعقول مهما كان ذكياً، وكل الذي يكون من مقدوره- والغالب أنه لا يحاول ذلك- هو تلمس الحيل العقلية والقلب والأبدال توصلا إلى ضم الرأي الذي يعارض به إلى الرأي الذي تمكن منه.

وإذا بدت أن المبادئ لا تؤثر في الحياة إلا إذا انتقلت من عالم الشعور إلى عالم اللاشعور تبين السبب في بطء تغيرها، ووضحت العلة في أن الذي تبني عليه الحضارة منها قليل، وأنه لابد من زمن طويل لتطورها، وعلينا أن نسر بأن هذا هو الواقع وإلا ما كان للحضارة أن تحي طويلا، كذلك من حسن الحظ قابلية المبادئ الجديدة للاستقرار إذ لو دامت المبادئ القديمة مدى الدهر لاستحال أن ترقى الحضارة أبداً وبطء تطور المقولات هو السبب في أنه يلزم لاستظهار المبادئ الجديدة عدة أجيال كما أنها لا تزول إلا بعد أجيال عدة، وأرقى الأمم حضارة هي التي تيسر لها أن تمسك مبادئها الأساسية على بعد واحد من التغيير والجمود، أما الأمم التي لم يكن لها هذا الحظ فبادت والتاريخ يذكر بقاياها.

وعلى ذلك يتجلى لنا بسهولة أن كثرة المبادئ وقرب عهد ظهورها ليس هو الذي يستوقف النظر في تاريخ الأمة بل على الضد قلتها المتناهية وبطء تحولها وشدة تأثيرها، فالحضارة بنت بعض المبادئ الأساسية تبقى ببقائها وتتغير بتغيرها، قامت حياة العصور الوسطى على

مبدأين المبدأ الديني ومبدأ حكم الإشراف، وإلى هذين المبدأين ترجع فنون تلك الأزمان وآدابها ونظرها في الحياة على الإطلاق، ثم طرأ على هذين المبدأين بعض التغيير زمن "النهضة"، ومنذ تجدد خيال العصر الإغريقي الروماني وتمكن من عقل أوروبا بدأ التطور في تصور الحياة وفي الفنون والفلسفة وصناعة الأدب، ثم تداعت قوة السنة السالفة وصارت الحقائق العقلية تحل محل الحقائق النقلية، فتطورت الحضارة تطوراً جدياً والظاهر أن المبادئ الدينية فقدت الآن القسم الأكبر من سلطانها فوهنت قواتها وأصبحت جميع النظامات الاجتماعية التي كانت مرتكزة عليها مهددة في وجوهها.

يجب أن نكثر الأمثلة للإتيان على تاريخ تكوين الأفكار وتمكنها واضمحلالها وتغيرها وزوالها. ولو أتيح لنا الدخول في الجزئيات لبينا أن كل عنصر من عناصر المدنية كالفلسفة والدين والفنون والأدب وهكذا يرجع إلى عدد يسير من المبادئ الأساسية البطيئة النمو، ولا تشذ العلوم ذاتها عن هذه القاعدة.

فعلم الطبيعة قائم الآن على مبدأ عدم انعدام القوة، وعلم الطب قائم على مبدأ أصغر ما خلق، وتاريخ هذه المبادئ يدل على أنها لا تستقر إلا بالصعوبة رويداً رويداً مع كونها من أبحاث العقول المستنيرة، ومع أن كل شيء يسير على عجل في هذا العصر وأنه لا تأثير للشهوات ولا للمنافع في الباحثين وأهل النظر، يحتاج المبدأ العلمي الأساسي الواحد إلى خمسة وعشرين عاماً حتى تتجلى غوامضه ويأخذ قراره، ولم

يمض زمن أقل من هذا في تقرير أوضح المبادئ وأقلها عرضة للخلاف كمبدأ الدورة الدموية.

وجميع المبادئ متحدة في كيفية التكوين والظهور لا فرق في ذلك بين المبدأ العلمي والمبدأ الفلسفي أو الفني أو الأدبي أو غيره.

يعتنق المبدأ في أول الأمر عدد قليل من المبشرين به ثم الذين يعظم نفوزهم بما هم عليه من قوة اليقين أو بما لهم من المكانة الرفيعة، وينتشر أثرهم بالإلقاء أكثرهم مما ينشر بالتقرير لأن عناصر الإقناع الحقيقية ليست في قوة البيان، وإنما يدين المخاطب لرأي المتكلم لنفوذ الثاني أو لكونه يوجه الخطاب إلى ما يشتهي الأول ولكنه لا يؤثر فيه أقل تأثير إذا وجه خطابه للعقل وحده، فلا تتأثر الجماعات خاصة بالتقريرات ولكنها تتأثر بالتأكيدات، وقوة التوكيد تابعة لنفوذ مقدمها.

ومتى نجح المبشرون في إقناع من حولهم كان لهم منهم مبشرون آخرون، إذ ذاك يدخل المبدأ الجديد في باب البحث والمناظرة وتكون المعارضة فيه عامة في مبدأ الأمر لأنه يصطدم بالضرورة مع أمور كثيرة ثابتة من قبل فيحتاج ذلك القائمين بالدعوة إليه لأن المعارضة تزيدهم اقتناعاً بتفوقهم على من عداهم وتكبر عزيمتهم في الدفاع عن مبدأهم لا لمجرد كونه حقاً إذ الغالب أنهم لا يعرفون مبلغ ما فيه من الصواب، بل لأنهم اختاروه وأعلنوه، هنالك يشتد التجاذب فيه، ومعنى ذلك في باطن الأمر أن الدعاة يقبلون المبدأ على علاته والآخرون يرفضونه كذلك، ويكثر النفي والتوكيد بين المتجاذبين وتقل البراهين لأن أسباب قبول

مبدأ أو رفضه عند أغلب العقول راجعة إلى الشعور وهو لا يتأثر بالبرهان إلا قليلاً.

وبينما الجدل يزداد احتداماً ينمو المبدأ الهوينا وتميل إليه النابتة لعلة أنه غير متفق عليه لأن الشباب ولوع بالاستقلال وأخص ميوله معارضة المبادئ التي درج القوم عليها، وهكذا يتدرج المبدأ في النوم ولا يلبث أن يستغنى بذاته عن النصراء فيأخذ في الانتشار بمجرد عدوى التقليد وهي ملكة شائعة بين الناس جميعاً بدرجة عالية كما هي في آبائهم من القردة بشهادة العلم الحديث.

متى دخل المبدأ الجديد في دور الانتشار بعامل العدوى فقد دخل في دور النجاح، وسرعان ما يقبله الرأي فيكون له من ذلك قوة دقيقة نفاذة ترسله إلى العقول شيئاً فشيئاً، وتبني له فيها بيئة خاصة وتوجد له ملكة يسكنها، ويصير كأنه العثير دق فانساب في جميع التصورات وتخلل كل ما يصنع في عصره إلى أن يصير هو وآثاره جزءا من الموروثات العادية التي يخضع لحكمها بالتربية وبذلك يتم له الفوز ويلتحق بالمشاعر فتكون له درعاً يقيه دهراً طويلاً.

ومن المبادئ التي يقوم عليها بناء الحضارة ما تبقى مزيته للطبقات الراقية كالتي تقوم بها الفنون أو الفلسفة، ومنها ما ننزل حتى يبلغ أسف الطبقات كالدين والسياسة على الأخص ولكنها لا تهبط إلى هذا الحد إلا مشوهة جداً وإذا بلغته عظم تأثيرها في النفوس الساذجة التي لا قبل لها على البحث فيها، هنالك يكون المبدأ علماً على أمر لا سبيل إلى

مقاومته، أو تتدفق أثاره بعنف كأنها السيل ضعفت السدود عن رده، ومن السهل أن يجد الإنسان في كل أمة ألف رجل يقدمون أنفسهم ضحية لمبدأ تمكن من نفوسهم، حينئذ تظهر الحوادث الجسام التي تغير وجه التاريخ، ولا يقدر على القيام بها إلا الجماعات فما الأدباء ولا أهل الفنون ولا الفلاسفة هم الذين رفعوا راية الأديان التي دانت لحكمها الدنيا وشادوا الممالك التي امتد سلطانها من وجه الكرة إلى وجهها الثاني وأحدثوا الثورات الدينية والسياسية التي قلبت كيان أوروبا.

بل الذين فعلوا ذلك هم الجهلاء الذين اشتد تمكن المبدأ في نفوسهم فهانت عليهم في سبيل نصرته، بهذه العدة الضئيلة نظرياً القوية فعلا فتح رجل صحاري بلاد العرب قسماً من الدنيا الإغريقية الرومانية وشادوا دولة من أضخم الدول التي ورد ذكرها في التاريخ وبمثل هذه العدة الأدبية أعني سلطان المبدأ على النفوس وقف جند "العهد" البواسل في وجه أوروبا بأجمعها.

للاعتقاد قوة لا يلغيها إلا قوة اعتقاد مثلها، فليس للإيمان عدو إلا الإيمان، والنصر حليفه متى كانت القوة المادية التي تعترضه خادمة لشعور ضعيف ومعتقدات تولاها الوهن، لكن إذا اصطدم بإيمان يماثله في قوته أصبح الحرب عواناً وصار النصر منوطاً بالأحوال الثانوية التي تكتنف الغالب منهما وأهمها ما كان راجعاً إلى قوة الخلق وتعود الانقياد وحسن النظام، وإذا تأملنا تاريخ العرب أيام فتوحاتهم الأولى – أول الفتوحات أصعبها في العادة وأهمها – رأينا أنهم وجدوا أمامهم خصوماً

ضعفت أخلاقهم الأدبية وإن كان نظام جنديتهم محكماً، تقدمت جيوشهم أولاً إلى البلاد السورية فلم يجدوا فيها إلا جيشاً بيزنطياً مؤلفاً من الأجراء الذين ليس لهم ميل إلى تضحية أنفسهم في سبيل غرض ما، وكانت شدة إيمان العرب تزيد قوتهم العددية عشر أمثالها فلم يعانوا في تمزيق شمل تلك الجيوش التي لم يكن لها خيال تقاتل من أجله وكذلك استطاع نفر قليل من الإغريق تمكن منهم حب المدنية من تشتيت شمل جيوش "اكزر سيس" العظيمة، وكانوا يعجزون وتتغير نتيجة الحرب لو أنهم اشتبكوا قبل ذلك ببضع قرون مع الجيش الروماني، فمن الواضح أنه إذا التقت قوتان أدبيتان متساويتان كان الفوز لأحكمها نظاماً.

لذلك غلبت جيوش أهل "العهد" الفرنسيين جند "الفندان" لتساوي الفريقين في قوة الاعتقاد وتفوق الأولين في حسن النظام.

ومن هنا يتبين أن النصر على الدوام حليف المؤمنين.

لا فرق في ذلك بين السياسة والدين، وإذا ظهر الآن أن المستقبل للاشتراكيين رغم فساد مذهبهم فساداً مريعاً فذلك لأنه ليس من صح اعتقاده في هذا الزمان غيرهم، أما الطوائف التي بيدها زمام الأمم في عصرنا فإنها فقدت اليقين في كل شيء حتى في مقدرتها على الدفاع عن نفسها من سيول البربر التي تكتنفها من كل جانب متى قطع المبدأ أدوار التعثر والتحور والتغيير والجدل والانتشار واستقرت صورته الأخيرة ودخل في روح الجموع صار عقيدة أعني حقيقة مطلقة لا يتطرق إليها الشك ولا جدال فيها، وانضم بذلك إلى المعتقدات العامة التي تقوم بها حياة

الأمة، وعمومه يجعله ذا شأن ممتاز من حيث التأثير في النفوس، أنك لتجد أزمان التاريخ العظمى كعصر "أغسطس" وعصر "لويس الرابع عشر" هي التي خلصت فيها المبادئ من أدوار تكوينها واستقرت بعد أن بطلت المناظرة عليها وتمت لها السيادة على الأفكار، هنا لك تصير المبادئ منارات تصبغ بألوانها الضوئية كل ما أشرقت عليها.

متى انتصر مبدأ جديد ظهر أثره في عناصر المدنية كبيرها وحقيرها، ولكنه لا يحدث أثره كله إلا إذا دخل في روح الجموع، فهو ينزل من العقول السامية التي ظهر فيها إلى الطبقة التي تليها ثم إلى التي بعدها متحوراً متغيراً حتى يكتسي حلة تحله من نفوس الجموع محلاً مقبولاً، وهناك يتم له الفوز، وإذا ذاك يصاغ في كليات وجيزة، وربما صيغ بكلمة واحدة تثير في الخيال صوراً قوية أخاذة أو مريعة لكن مؤثرة على كل حال، مثل ذلك الجنة والنار في القرون الوسطى، كانا لفظين قصيرين وكان لهما قوة سحرية تفعل في كل شيء وتفسر للنفوس الساذجة كل شيء ولكلمة "اشتراكية" في مخيلة العملة في هذا العصر صورة ساحرة جامعة ذات قوة تأخذ بمجامع النفس وهي تثير صوراً مختلفة بحسب الجموع التي تنتهي إليها وكلها مؤثرة جداً رغم سذاجتها.

تمثل كلمة "اشتراكية" في ذهن النظري الفرنسي صورة جنة تسامى الناس فيها فتمتعوا بالسعادة الكاملة في ظل الحكومة وتمثل للعامل الألماني حانة طبق دخانها وطفق رجال الحكومة يقدمون لكل قادم أطباقاً من لحم الخنزير والكرنب المملح ودناناً من الجعة، ومن المعلوم

أن كلا الرجلين حالم المساواة وحالم الكرنب لم يلتفت أبداً إلى معرفة مقدار المقسوم ولا إلى عدد المقتسمين، ذلك لأن صفات المبدأ إذا ثبت أنه يأخذ حيزه بصورة مطلقة لا يؤثر فيها النظر ولا يضعفها الاعتراض.

إذا تم استقرار المبدأ رويداً رويداً حتى صار عقيدة كان فوزه طويل الأمد وحبط كل دليل يقام لزعزعته، نعم مصيره أن يناله ما نال المبدأ الذي حل هو محله فيهرم ويتداعى ولكنه لا يبلغ درجة البلى إلا بعد أن يقطع في تقهقره أدواراً من التغير والمسخ، وذلك لا يتم إلا في عدة أجيال، ويكون قبل موته قد عاش دهراً منضماً إلى المبادئ القديمة الموروثة التي يعبر عنها بالأوهام ويحترمها الناس رغم ذلك فللمبدأ القديم سلطان على النفوس يبقى وإن جرد اسمه من معناه وصار صوتاً لا مردد له في القلوب.

وهكذا يدوم كل ما تقادم عهده من تراث الآراء والاتفاقات أي المألوف التي يكاد المرء يعبدها احتراماً، وهي لا تحتمل النقد لحظة واحدة لو أنا هممنا بالبحث فيها، ولكن القليل من الناس يجرأ على البحث في أفكار نفسه كما أن قليلاً من الأفكار يبقى إذا تناوله أقل بحث سطحي.

الأولى أن لا يقدم المرء على هذا البحث المخيف، ومن حسن الحظ أنه بعيد عنه، لأن النقد ملكة راقية نادرة جداً، والتقليد ملكة شائعة جداً، ولذلك نرى جمهور الناس يقبلون المبادئ كما تأتيهم على

علاتها بمحض شيوعها أو من طريق التربية، ومن هنا اشتراك السواد الأعظم من كل أمة وكل زمان في حد وسط من التصورات والمعقولات فأشبه بعضهم بعضاً شبهاً قوياً حتى أن الناظر إلى فنونهم وآدابهم وفلسفتهم يعرف منها الزمن الذي عاشوا فيه وإن بعد دهر مديد، وعلة ذلك التشابه القوي ما تناقله الخلف إلى السلف بالوراثة والتربية والبيئة والعدوى والآراء، نعم ليس الخلف صورة تامة للسلف، إلا أن الذي اتحدا فيه كيفية تصور المعقولات والمحسوسات وذلك يؤدي بالضرورة إلى نتائج متشابهات.

ولنا أن نسر من هذا، لأن روح الأمة إنما يتكون من مجموع تلك التقاليد والمشاعر والمبادئ والمعتقدات وكيفية تصور المعقولات، وقد علمنا أن قوة هذا الروح من قوة ذلك المجموع وهو الذي تدوم بدوامه الأمم، فإذا ما اعتراه الانحلال تقوض بنيانها فهو قوتها الحقيقية وهو سيدها الحقيقي، كثيراً ما مثلوا ملوك البلاد الأسيوية مستبدين مبادئهم أهوائهم، على أن تلك الأهواء محصورة في دائرة لا مخرج عنها لأنك لا ترى قوة المجموع التي أشرنا إليها أشد منها في بلاد الشرق، فالتقاليد الدينية التي اهتزت أركانها عندنا لا تزال على متانتها الأولى عندهم هذين السيدين الرأي والسنة، لأنه يعلم حق العلم أنهما أشد بأساً منه وأعظم سلطاناً.

اليوم يوجد الرجل المتحضر في عصر من أشد أدوار التاريخ محنة، دور لا تزال المناظرة دائرة فيه على المعتقدات، لأن المبادئ القديمة

التي تشتق منها الحضارة فقدت نفوذها ولما تستقر المبادئ الجديدة، اليوم لا يدري الإنسان مقدار أخذ الرأي والعادة

من النفوس ولا الذي كان يلقاه المبدع من وراء تهجمه على هاتين القوتين، ولكنه يعرف ذلك إذا رجع إلى تاريخ الحضارات القديمة أو إلى ما كان منذ قرنين أو ثلاثة.

يروي لنا بعض الجهلاء من القصص أن الإغريق كانوا أحراراً وما كانوا عبيداً إلا عبيداً للعادة والاعتقاد، كان يحيط بالواحد منهم دائرة من المعتقدات يقدسها، وما كان يخطر لأحد أن يجادل فيها فيما جرى عليه قومه، بل كان لذلك خاضعاً مستسلماً، وما عرفت الدنيا الإغريقية الحرية الدينية ولا حرية الحياة الذاتية ولا الحرية من أي نوع، بل أن شرائع "أثينا" ما كانت تبيح للوطني أن يعيش بمعزل عن الجماعة، ولا أن يمتنع عن إقامة حفلات الأعياد الوطنية كما يقيم الصلاة، وما كانت حرية الأزمان الأولى إلا خضوع الرجل لنير مبادئ البلد التابع له خضوعاً تاماً لبلوغها فيه درجة المشاعر اللاتنبيهية، ولو أتيح لأهل بلد أن يكونوا أحراراً في أفكارهم لما عاش هذا البلد يوماً واحداً بين تلك الجموع التي كان وجودها قائماً على حرب مستمر، ولم يبدأ دور انزواء الآلهة والنظامات والمذاهب إلا من اليوم الذي جاز فيه النظر فيها.

أما في حضارة هذا العصر فقد تهدمت على التقريب المبادئ التي كانت تستمد منها قوة العادة والمعتقد، فضعف لذلك أثرها في النفوس، ودخلت في دور البلاء الذي تصير فيه المبادئ القديمة أوهاماً، وما لم

يحل محلها جديد فالفوضى حليفة الأفكار، ولهذه الفوضى فضل هو احتمال الجدل والمناظرة، فعلى الكتاب والفلاسفة والمفكرين أن يشكروا هذا الدور وأن يسارعوا بالاستفادة منه لأنهم لن يروه ثانياً متى انقضى، وقد يعتبر هذا الدور دور تقهقر وسقوط إلا أنه دور يتمتع العقل فيه بالحرية التامة، فهو لذلك لا يحتمل الدوام طويلاً، لأن أحوال الحضارة الحاضرة تشعر بأن الأمم الأوروبية سائرة إلى دور لا يقبل الجدل ولا يحتمل الحرية وسببه أن المذاهب الجديدة لن يثبت قدمها إلا إذا حظر البحث فيها وأصبحت كالتي سبقتها لا تطيق المعارضة.

لا يزال الإنسان في هذا الزمان يبحث عن المبادئ التي يشاد عليها بناء الاجتماع في المستقبل وهذا هو الخطر الذي يهدده، لأن أهم شيء في تاريخ الأمم وأكبر مؤثر في حياتها هو تغير المبادئ الأساسية لا الثورات ولا الحرب إذ من السهل إصلاح ما أفسدته، ومن لوازم هذا التغيير تغيير جميع عناصر المدنية فالثورة الوحيدة التي يخشى منها على حياة الأمم هي التي تحدث في الأفكار.

ليس الخطر في اعتناق الأمة مبدأ جديداً بل الخطر الأكبر في اضطرارها إلى الانتقال من مبدأ إلى مبدأ حتى تعثر على الذي يصلح أساً يقام عليه بناؤها الجديد، كذلك ليس الخطر في كون المبدأ غير صواب، فقد كانت المبادئ الدينية التي عشنا عليها حتى الآن خطأ بل هو في التجارب العديدة التي لابد منها لمعرفة ملائمة المبادئ الجديدة لا حوال الأمة التي تحاول العمل بها، ذلك لأن الجموع لا تشعر لسوء الحظ

بفوائد هذه المبادئ إلا بالتجربة، نعم لا حاجة لأن يكون الإنسان ضليعاً من علم النفس ولا من علم الاقتصاد لينبئ بأن العمل بمقتضى مبادئ الاشتراكية الحاضرة يقضي بالأمم إلى أرذل درك الانحطاط وأخزى صور الاستبداد، لكن أين السبيل لمنع الأمم وقد افتتنت بتلك المذاهب من قبول ذلك الإنجيل الجديد.

لقد علمنا التاريخ ما ينجم عن الدعوة إلى الأفكار في زمان لم يتهيأ أهله لقبولها، ولكن الإنسان لا يلتمس العبرة من التاريخ فقد حاول "شارلمان" أن يعيد الدولة الرومانية إلا أن مبدأ الوحدة لم يكن ميسوراً تحققه فمات عمله بموته، وكذلك كان شأن "نابليون"، واستنفد "فيليب" الثاني حدة ذهنه وسلطان إسبانيا وكانت لها السيادة بين الأمم في مقاومة حرية البحث التي كانت تنتشر في أوروبا باسم "البروتستنتية" فلم يفلح، وكانت عاقبة هذه المقاومة وقوع إسبانيا في خراب وانحطاط لم تقم لها من بعده قائمة، وفي عصرنا هذا قام متهوس على رأسه تاج يدعو إلى مبادئ وهمية مدفوعاً بذلك الشعور الفاسد الذي امتازت به أمته يريد توحيد الأمم المتحدة في الجنس، فكان من وراء ذلك وحدة ألمانيا ووحدة إيطاليا وضياع إقليمين من أملاكنا وانزوائنا إلى أمد بعيد، افتتنت الأمم بمذهب فاسد، فقالوا قوة الجند في كثرة العدد ونشروا على القارة الأوروبية بساط حرس شاكي السلاح، وعاقبة ذلك الإفلاس لا محالة، ولو أن هذه الجيوش الجرارة الدائمة أبقت لها بقية من المال والوحدة والسلطان فسيأتي عليها مذهب الاشتراكيين في العمل ورأس المال وإبطال حق الملكية الشخصية وإقامة الملكية العامة مقامها.

من المبادئ الفعالة في أحوال الأمم مبدأ الجنسية، كان السياسيون قديماً يكبرون شأنه ويجعلونه قطب دائرة سياسهم وكان له الأثر السيء فإن أوروبا وقعت بسبب طموحها إلى تحقيقه في أشد الحروب ضرراً وجعلها تبيت متأبطة سلاحها، وسيقودها جمعاء إلى الدمار والفوضى، والسبب الوحيد الظاهر الذي كانوا يدافعون به عن هذا المبدأ هو أن أقوى الأمم وأبعدها عن الخطر أكبرها وأكثرها أهلا، ومع ذلك كانوا يتهامسون بأن مثل هذه الأمم أسهل فتحاً وأقرب منالاً، وقد ظهر الآن أن أصغرها وأقلها عدداً كالبرتغال واليونان وسويسرا وبلجيكا وأسوج وأميرات البلقان أبعد عن الخطر، لقد كان مبدأ الوحدة سبب خراب إيطاليا، وكانت زاهرة فأصبحت على شفا جرف الثورة والإفلاس، إذ بلغت ميزانية جميع ولاياتها مليارين، وكانت قبل الوحدة الإيطالية لا تبلغ "٥٥٠" مليوناً.

لكن ليس في طاقة الإنسان أن يوقف تيار الأفكار بعد أن تتصل بالنفوس، ولابد لها من إكمال دورتها، وحماتها في الغالب هم الذين أعدهم القدر ليكونوا أول ضحاياها، وليس إلا الغنم تمشي طائعة خلف الدليل الذي يقودها إلى المذبحة، فعلينا أن نحني الرؤوس أمام المبدأ لأنه متى بلغ في تطوره درجة معلومة لا ينفع فيه برهان ولا يستظهر عليه بيان، ولا تتخلص الأمم من ربقة مبدأ استولى على قلبها إلا بمرور الدهور أو بعنف الثورة، وقد يكون الأثنان لازمين، وما أكثر الأوهام التي افترضتها الإنسانية فافترستها على الدوام.

الفصل الثاني

تأثير المعتقدات الدينية في تطور المدنية

في رجحان تأثير المعتقدات الدينية – في أنها كانت على الدوام الركن الأكبر في حياة الأمم – في أن أكثر الحوادث التاريخية والنظامات السياسية والاجتماعية مشتقة من المبادئ الدينية – في أنه يتولد مع كل مبدأ ديني جديد حضارة جديدة – في قوة الخيال الديني – أثره في الخلق – في أنه يوجه جميع الملكات نحو غرض واحد – في أن تاريخ الأمم السياسي والفني والأدبي متولد من معتقداتها – في أن أقل تغيير في المعتقدات الدينية يحدث تقلبات كبيرة في حياة الأمة – أمثلة شتى.

أهم المبادئ التي تسير عليها الأمم وتعتبر منار التاريخ وعماد الحضارة المبادئ الدينية فلها من الشأن ما يجعلنا نفرد للكلام عليها فصلاً مستقلاً.

كانت المبادئ الدينية على الدوام أهم عنصر في حياة الأمم وهي لذلك أهم عنصر في تاريخها فأكبر حوادث التاريخ التي أنتجت أعظم الآثار هو قيام الديانات وسقوطها، وأول المسائل الأساسية في الأزمان الغابرة وفي الأزمان الحاضرة المسائل الدينية، ولو أن الإنسانية رضيت بموت جميع آلهتها لكان هذا الحادث أعظم الحوادث التي تمت فوق وجه الأرض منذ ظهرت المدنيات الأولى.

لا ينبغي لنا أن ننسى أن جميع النظامات السياسية والتدبيرات الاجتماعية قامت منذ بداية التاريخ على معتقدات دينية، وأن الآلهة هي التي لعبت أكبر دور في الحياة الإنسانية، وأن الدين أسرع مؤثر في الأخلاق لا يدانيه مؤثر اللهم إلا الحب، والحب دين، إلا أنه دين ذاتي غير دائم، وإذا أردت أن تعرف على أي حال تكون الأمة التي اهتجاها خيالها فانظر إلى فتوحات العرب والحروب الصليبية والاضطهاد الأندلسي وحال إنجلترا أيام "البوريتيين" و"سانت بار تلمي" في فرنسا وحروب الثورة الفرنسية، إلا أن للأوهام سحراً مستمراً شديد التأثير يتغير به المزاج العقلي تغيراً كلياً، خلق الإنسان الآلهة ولكنها ما لبثت أن استعبدته، وإنها بنت الأمل لا بنت الخوف كما وصفها "لوفريس" لذلك كان تأثيرها سرمدياً، لقد كان من تأثيرها فيه أن جعلت عقله متشعباً بفكرة السعادة فامتازت بذلك على كل مؤثر سواها، وقصرت الفلسفة عن إدراك هذه الغاية حتى الآن.

نتيجة كل حضارة إن لم تقل غايتها وكل فلسفة وكل دين تكوين حالات عقلية خاصة بعضها يقتضي السعادة وبعضها لا يقتضيها، وترجع السعادة إلى أحوال النفس أكثر مما ترجع إلى الأحوال الخارجة عنها، فلربما كانت الضحايا فوق مواقدها أسعد من قاتليها، وكم فالح أرض بيديه يقضم الكسرة مفروكة بالنوم أسعد بكثير من موسر متدفق الثروة تكاثفت حوله الهموم.

ومن دواعي الأسف أن الحضارة في هذا الزمان خلقت للإنسان

جمعاً من الحاجات ولم تعطه وسائل دفعها فتولد من ذلك عدم الرضاء في النفوس، قالوا الحضارة بنت الرقي، نعم وهي أم الاشتراكية وأم الفوضى، وهما صوتان مريعان تصيح بهما جموع قل إيمانها فاستولى اليأس على قلوبها، أين حال الأوروبي الذي تولاه القلق وهاجت أعصابه وأصبح غير راض بحظه من حال الشرقي الراضي بما قدر له، إنما الفرق بينهما في حالة النفس دون سواها وإنما يغير الأمة من يغير من تصورها ويجعلها تفكر وتعمل غير ما عملت.

يجب على الهيئة أن تسعى في إيجاد حال عقلية يكون فيها الفرد سعيداً وإلا فأجل الأمة قصير، فما قامت الأمم حتى الساعة إلا متكئة على خيال فيه قوة اجتذاب النفوس وما سقطت واحدة منها إلا بزوال سلطان هذا الخيال.

من أكبر خطأ هذا الزمان اعتقاد الناس أن النفس تجد السعادة في الأشياء الخارجة عنها، قل إن السعادة فينا ونحن الذين نوجدها، وشذ ما كانت بعيدة عنا، إنا هدمنا خيال العصر الماضي فصرنا نرى أنه لا حياة لنا من بعد هذا الخيال، وإنا إذا لم نوفق إلى الاستعاضة عنه فإنا هالكون.

أكبر المحسنين لبني الإنسان الذين يجب على الأمم أن تقيم لهم أفخم التماثيل من الذهب الوهاج هم أولئك السحرة القادرون الذين خلقوا لها الخيالات، أولئك يولدون أحياناً بين البشر ولكنهم لا يولدون إلا قليلا، أقاموا أمام سيول الآمال الفانية– وهي الحقائق التي لا قدرة للإنسان على معرفة غيرها وفي وجه هذه الدنيا العبوس الجامدة– حجاباً

من الأوهام القوية فسروا عن الإنسانية وستروا ما في الحياة من غضاضة ومضض وخلقوا جنات النعيم .... بها الرجاء وتوالت الأحلام.

وإذا رجعنا إلى الجهة السياسية عامنا أيضاً كيف كان تأثير المعتقدات شديداً، والسبب في قوة الدين العظيمة كونه العامل الوحيد الذي تتوحد به وقتاً ما منافع الأمة ومشاعرها وأفكارها فيقوم المبدأ الديني بذلك دفعة واحدة مقام غيره من العناصر التي تتكون منها روح الأمة والتي لا تنتج هذه النتيجة إلا إذا أربت وتم نضجها بالوراثة، نعم لا يتغير مزاج الأمة العقلي بمجرد استيلاء دين على قلبها غير أن جميع القوى تتجه نحو غاية واحدة هي الانتصار للمعتقد الجديد وفي ذلك سر قوتها العظمى، لذلك تجد أن قيام الأمم بأعظم الأعمال كان في عصر هذا التطور الوقتي أعني عصر تدينها، وتأسيس أكبر الممالك التي أدهشت العالم كان في عصر تدينها، كذا اتحدت بعض قبائل العرب بفكرة محمد "صلى الله عليه وسلم" فاستطاعوا قهر أمم كانت لا تعرف منهم حتى الأسماء وشادوا تلك الدولة الكبرى.

والذي يجب الالتفات إليه قوة تمكن المعتقد من النفوس لا حقيقة هذا المعتقد، لا فرق بين أن الدعوة للألة "مولوخ" أو لغيره ممن هو أعرق في الهمجية، بل ربما عظم نفوذ المعبودات كان قاسي القلب ومن المستبدين، لأن الآلهة التي تغالت في التسامح واللين لا تشد عزائم عبادها، ومن أجل ذلك ساد أتباع محمد بتشدده وامتد سلطانهم على قسم كبير من الدنيا زمناً طويلاً ولا تزال لهم خشية في النفوس، وأما أتباع

"بوذا" الهادي فأنهم لم يأتوا عملاً باقياً، وقد نسيهم التاريخ.

وعليه يتضح أنه كان للدين شأن كبير في سياسة الأمم لأنه هو العامل الوحيد سريع التأثير في أخلاقها، نعم أن الآلهة ليسوا خالدين ولكن المبدأ الديني باق لا يزول، ... زماناً ثم ينشط متى ظهر رب جديد، وهو الذي استطاعت به فرنسا وحدها منذ قرن أن تقاوم أوربا كلها، فعرف البشر مرة أخرى درجة تأثير المعتقدات الدينية، لأن الأفكار التي امتلكت العقول في ذلك العصر كانت في الحقيقة ديناً جديداً نفخ في الأمة من روحه فأنعشها، لكن الآلهة التي برزت من خلال تلك المعتقدات كانت لطيفة المادة فلم تدم إلا قليلاً على أن سلطانها مدة وجودها كان سلطاناً كبيراً.

بعد ذلك نقول أن قدرة الديانات على تغيير روح الأمم قدرة فانية، فلما تدوم المعتقدات على قوتها الأولى زمناً يكفي لتغيير الخلق تغييراً تاماً، سببه أن قوة الأحلام لا تلبث أن تفتقر ويرجع المأخوذ بسكرتها بعض الرجوع إلى اليقظة فتظهر حقيقة الخلق العتيق.

يظهر على الدوام خلق الأمة حتى وسلطان الدين في منتهى شدته فتراه في الصبغة التي انصبغ بها الدين عند الأمة التي اعتنقته وفي المظاهر التي تنشأ عنه، انظر إلى الفرق العظيم بين المعتقد الواحد في إنجلترا وإسبانيا وفرنسا تجد أنه من المستحيل ظهور "البروتستنتية" في إسبانيا ولا أن ترضى إنجلترا بإقامة الاضطهاد "محكمة التعذيب" بين ربوعها بل تأمل حال الأمم التي دانت بالبروتستنتية تظهر لك أخلاقها الأساسية الأولى بادية عليها وأنها بالرغم من افتتانها بمعتقدها لا تزال محتفظة بمميزات مزاجها العقلي أعني الاستقلال ومضاء العزيمة وتدبر الأمور قبل الأخذ بها وإباء الخنوع

والاستدلال لسيد يصدر في أمره عن الهوى يتولد تاريخ الأمم السياسي والأدبي والفني من معتقداتها إلا أن هذه كما تؤثر في الخلق تتأثر أيضاً به، فمفاتيح حياة الأمة خلقها ودينها، والأول دائم من حيث صفاته الأولى وعدم تغيره هو السبب في وحدة تاريخ كل أمة واطراده، أما المعتقدات فقابلة للتغير وتغييرها هو السبب في أن التاريخ يحكي كثيراً من الانقلابات في الأمم.

أقل تغيير يطرأ على معتقدات الأمة يجر وراءه تغييرات عدة بعضها أثر بعض وقد قدمنا في الفصل السابق أن أهل فرنسا في القرن الثامن عشر كانوا يخالفون جداً في الظاهر أهلها في القرن السابع عشر، وما السبب في هذا إلا أن العقل كان انتقل بين قرن وقرن من اللاهوت إلى العلم، وعارض التقليد بالنظر، والحقيقة النقلية بالحقيقة العقلية، فكان هذا التغير في التصورات كافياً وحده لإحداث التفاوت بين عصر وعصر، وإذا اقتفينا آثاره رأينا أن الثورة الفرنسية والحوادث التي تلتها ولا تزال موجودة فينا إنما هي نتيجة لازمة لتطور حصل في المعتقدات.

اليوم تميل الأمم القديمة إلى السقوط فهي تهتز من الوهن، ونظاماتها تتداعى إثر واحد، وعلة ذلك فقدانها كل يوم شيئاً من إيمانها الذي قامت عليه الآن، فإذا فقدته كله قامت حتماً مقامه حضارة جديدة مؤسسة على معتقد جديد، لأن التاريخ يدلنا على أن الأمم لا تحيى طويلا بعد اختفاء معبوداتها.

وأن الحضارات التي جاءت مع تلك المعبودات تذهب بذهابها ألا لا شيء أفعل في التخريب من أثر معبود يموت.

الفصل الثالث

شأن عظماء الرجال في تاريخ الأمم

في أن الرقي العظيم يتم في الأمم على يد نفر قليل من أهل العقول السامية حقيقة شأن هؤلاء – في أنهم يمثلون جميع مجهودات شعوبهم – أمثلة منتزعة من الاكتشافات العظيمة – شأن عظماء الرجال في السياسة – في أنهم موضع حلول الخيال السائد على أمتهم – تأثير عظماء المتهوسين – في أن كبار المكتشفين يبدلون حضارة الأمة – في أن المتعصبين والمتهوسين يخلقون التاريخ.

عندما بحثنا في تقسيم الأمم وبيان الفروق التي يختلف بها بعضها عن البعض الآخر اتضح لنا أن الفارق بين الأوروبيين وبين الشرقيين هو اختصاص أولئك بفريق راق من العظماء دون هؤلاء فلنأتي على طرف من شأن هؤلاء النبغاء.

تجتمع مقدرة الشعب كلها في هذه الطائفة الصغيرة المؤلفة من الرجال الممتازين، أولئك الذين إذا أخرجناهم من كل جيل سقط مستوى الأمة العقلي سقوطاً كبيراً، وإلى هذه الطائفة يرجع الفصل في الرقي الذي وصلت إليه العلوم والفنون والصناعة وبالجملة جميع فروع الحضارة، والتاريخ يدلنا على أنا مدينون لهذا الرهط بكل ذلك، ومع كون المجموع منتفعاً بهذا الرقي فإن الناس لا يرتاحون عادة للتفوق عليهم وإن كان

النبوغ آتياً من بينهم، لذلك ذهب عظماء المفكرين وكبار المكتشفين ضحية غضب قومهم في غالب الأحيان، وما درى القوم أن غرس الأجيال الماضية وثمرة ماضيها إنما تنمو في بستان تلك العقول النابغة التي هي قطوفها الدانية، أولئك هم مجد الأمم وكل فرد من أفرادها وإن صغير يفخر بهم ويعتز بشأنهم، لأنهم لا يوجدون اتفاقاً ولا بمعجزة من المعجزات ولكنهم ثمرة الماضي الطويل، فيهم تمثل عظمة عصرهم ومكانة أمتهم، وكل ما ساعد على انبثاق أزهارهم فإنما يساعد على انتشار الرقي الذي تستفيد منه الإنسانية، لكنا إذا تركنا أضغاث أحلامنا بالمساواة العامة تغشي بصائرنا كنا أول ضحاياها فما المساواة إلا بين المنحطين وهي مطمح آمال صعاليك العقول يحلمون بهم وهم بأحلامهم من التعساء، إنما صدقت تلك الأحلام عند المتوحشين، أما الأمم الراقية فلا سبيل للتساوي بين أفرادها إلا إذا تدرجت في إسقاط كل رفيع فيها مما تعتز به مكانتها حتى يهبط إلى أسفل مستو فيها.

على أن شأن العظماء ليس على قدر ما هو شائع عند الناس مهما بلغ أثره في رقي الحضارة، لأنه ينحصر كما قدمنا في تمثيل مجهودات الأمة كلها، فاكتشافات المكتشفين ثمرة اكتشافات كثيرة سابقة، وهم إنما يقيمون بناء من أحجار هندمها المتقدمون على مدى الزمان، ولكن المؤرخين ميالون بطبيعتهم إلى تبسيط الأشياء، تراهم يلصقون بكل اكتشاف اسما من الأسماء مع أنه لا يوجد بين الاكتشافات الكبيرة التي غيرت وجه البسيطة كالمطبعة والبارود والبخار والتلغراف الكهربائي ما يجوز نسبته إلى رجل واحد، ومن تأمل في تاريخ هذه الاكتشافات وجدها

ثمرة أتعاب سابقة، والمكتشف الأخير إنما هو شرفة ذلك البناء.

كان العالم "غاليلي" أول من لاحظ تساوى تموجات المصباح المعلق في الفضاء من حيث الزمن فمهد الطريق بذلك لاكتشاف الساعات المنضبطة انضباطاً تاماً، "كرنو ومتر" ومن هنا استطاع الملاحون إيجاد ما يهتدون به في طريقهم فوق الماء، وبارود المدافع مأخوذ من "النار الإغريقية" المحولة تحويلاً بطيئاً، والآلة البخارية ثمرة اكتشافات عديدة اقتضى كل واحد منها مجهودات كثيرة، ولو أن رجلا من الإغريق أعطى فوق ذكاء "أرشميد" مائة مرة لما توصل إلى اختراع قاطرة السكة الحديدية، ولو استطاع اكتشافها لما استفاد منها إذ كان يعوزه في إبرازها إلى عالم التنفيذ أن يتقدم علم "الميخانيقا" إلى درجة لم يصلها إلا بعد ألفي عام.

يخيل للناس أن عظماء السياسيين غير مرتبطين برباط مع الماضي ولكنهم في الحقيقة ليسوا أقل ارتباطاً به من المخترعين والمكتشفين، ولقد طاش نظر بعض الكتاب مثل "هيجيل" و"كوزان" و"كارليل" وغيرهم لانبهارهم بسناء أولئك العظماء الذين يقلبون الأمم ذات اليمين وذات الشمال ويغيرون حياتها السياسية فأرادوا أن ينزلوهم منازل الآلهة الذين هم وحدهم سلطان على مصير الأمم، لا شك أن في استطاعة أولئك العظماء تعكير تطور الأمة لكن مقدورهم لا يصل إلى تغيير مجرى حياتها.

وليس في استطاعة عقل كعقل "كرمويل" أو "نابليون" أن يأتي بعمل مثل هذا، ورب فاتح عظيم يهدم المدائن بالحديد والنار ويبيد الرجال

ويخرب الممالك كما يحرق الطفل دار تحف ملئت بكنوز الفنون، إلا أنه ينبغي أن لا نغير بهذه القوة الهادمة فنخطئ تقدير شأن أولئك العظماء، إذ ليس لأثرهم بقاء إلا إذا عرفوا كيف يستخدمون مقدرتهم حيث تكون حاجات عصرهم كما فعل "قيصر" و"ريشيلو"، وحينئذ فالسبب الحقيقي في نجاحهم موجود قبلهم بزمن طويل، ولو ظهر الرجلان قبل عصرهما بقرنين أو ثلاثة قرون لما أتيح للأول أن يخضع الجمهورية الرومانية العظيمة إلى إرادة سيد قاهر، ولا تمكن الثاني من إيجاد الوحدة الفرنسية، وعليه فكبراء السياسة الحقيقيون هم الذين يمثلون حاجات الأمم التي اقتربت والحوادث التي أتم الزمان معداتها ويرشدون إلى الطريق الذي يجب السير فيه، وقد يجوز أن يكون هذا الطريق مجهولاً من الجميع، ولكن الأقدار التي قضت بتطور الأمة كانت لابد أن تدفع إليه الأمم التي أخذ أولئك القادرون موقتاً بزمامها، فمثل هؤلاء كمثل المكتشفين يمثلون ثمرات مجهودات طويلة سابقة.

لا ينبغي أن تذهب إلى أبعد من ذلك في المقابلة بين طبقات عظماء الرجال، فللمكتشفين شأن كبير في تطور الحضارة المستقبل ولكن لا شأن لهم مباشرة في تاريخ الأمة السياسي، ذلك لأنهم من مخترع المحراث إلى مخترع التلغراف ومن بينهما من أصحاب المخترعات التي يتمتع بها الناس لم يكن لهم من الصفات الخلقية ما يمكنهم من إقامة دين أو افتتاح مملكة، أعني أنهم لم يكن لهم من المواهب ما يستطيعون به تغيير التاريخ تغييرا باديا، وتجردهم من تلك الصفات آت من كونهم أهل تفكير وتدقيق، والمفكر لا يجهل ما في

المفكورات من الأشكال والتعقيد، وعلمه هذا يؤثر في يقينه فيضعف منه، ومن جهة ثانية تراه لا عناية له بالأطماع إلا قليلا لأن الذي يستحق ذلك منها نادر، فلا يحفل بواحد منها، والخلاصة أن المكتشفين لا يغيرون الحضارة إلا مع الزمن، وأما المتعصبون ذوو العقول الضيقة الممتازون بقوة الخلق وشدة الشهوة فهم الذين يقدرون على إقامة الأديان وتأسيس الممالك وقلب نظام البشر، هذا بطرس الراهب أقام صوته ألوف الألوف ورمى بهم نحو الشرق، وهذا صوت محمد "صلى الله عليه وسلم" كان له قوة التأثير ما انتصر به على الدنيا القديمة الإغريقية الرومانية، وراهب خامل الذكر مثل "لوثر" أقام أوروبا وقذفها في بحر من النار والدماء، لكن الجموع لا تسمع صوت "غاليلي" أو "نيوتن"، والخلاصة أن عظماء المكتشفين يعجلون سير المدنية، والمتعصبون والمتهوسون يخلقون التاريخ.

ليس التاريخ كما يسطرونه إلا سرد الحوادث التي أحتملها الإنسان ليخلق له خيالا يعبده ثم يبيده، وليس لمثل هذه الخيالات قيمة في نظر العلم إلا كسراب الضياء فوق الرمال المتحركة في البيداء.

لكن المتهوسون الذين خلقوا هذا السراب هم الذين قلبوا العالم رأساً على عقب، ولا يزالون يخضعون الناس لسلطانهم وهم في القبور، ولا يزالون يعملون في أخلاق الأمم ومصيرها، فلا ينبغي لنا أن نتجاهل شأنهم ثم لا ننسى أنهم ما قاموا بتلك الأعمال إلا أنهم مثلوا على غير علم خيال أممهم وعصورهم فلا حول لرجل في تحريك أمة إلا إذا تمثل

أحلامها تمثل موسى حاجة اليهود إلى الخلاص بعد أن اختمرت في قلوبهم منذ سنين قضوها عبيداً ترهق أجسامهم سياط المصريين، وأدرك "بوذا" و"عيسى" تعاسات عصورهم فصوروا الرحمة والحنان بصورة دين وكان الناس يتشوقون منذ زمان إلى رحمة وحنان ينجيانهم من شقاء عام، ووحد محمد الدين فألف بين قلوب قوم كان بعضهم لبعض عدواً، وجندي نابغة صار نابليون تمثل الرغبة في المجد الحربي والزهو بنشر الثورة ذلك ما اشتهرت بع في عصره أمة طاف بها خمسة عشر عاماً أنحاء أوروبا وراء أغراض لم تكن إلا ضرباً من الجنون.

إن قواد البشر هم الذين يمثلون مبادئ البشر ويعملون على نشرها وإن شئت فقل قائد الناس مبادئهم، ويتم النصر للمبادئ متى قام للدفاع عنها متهوسون ومؤمنون، ولا عبرة بما إذا كانت على حق أو باطل، بل إن التاريخ يفيدنا أن أكبرها بطلاناً أكبرها أثراً في فتنة الناس، وحتى الآن لا نعلم أنه أصاب الدنيا انقلاب أو سقطت حضارة كان يظهر أنها خالدة أو قامت حضارة على أطلالها إلا إذا كان ذلك باسم مبادئ يخجل العقل منها، وليست مملكة السموات هي التي هيئت لفقراء العقول كما جاء بتوكيده الإنجيل بل مملكة الأرض على شريطة أن يكونوا من ذوي اليقين الذي يرفع الجبال الراسيات، وعلى الفلاسفة الذين يقتلون الأدهر في هدم ما بناه المؤمنون في يوم واحد أن يخروا لهم ساجدين، فأنهم حلقة من سلسلة تلك القوى الخفية المهيمنة على الكائنات، ولقد جاءوا بأعظم الحوادث التي خلدت في بطون التاريخ.

جاءوا للناس بالأوهام، والناس عاشوا بتلك الأوهام المخيفة الجذابة الباطلة، وستبقى مصدر حياتهم في المستقبل، فإن قيل أنها طيف لا حقيقة له قلنا طيف وجب احترامه، فبفضله عرف آباؤنا حلاوة الأمل فانطلقوا وراء تلك الأوهام انطلاق الشجاع أصابته جنة، وأنقذونا من الهمجية الأول، وأوصلونا إلى ما نحن فيه الآن، كذلك كانت الأوهام أشد عوامل الحضارة تأثيراً.

الوهم هم الذي شاد الأهرام وغطى وجه مصر بصخر مصنوع مدى خمسة آلاف عام، والوهم هو الذي بنى في القرون الوسطى تلك البيع الضخمة الهائلة، ورمى بالغرب فوق الشرق للاستيلاء على أحد القبور، والوهم هو الذي أسس أدياناً وإن بها نصف البشر، والوهم شاد أكبر الممالك وأباد أعظم الدول، وهكذا بذلت الإنسانية جل مجهودها وراء الخيال لا طلباً للحقيقة، وما كان لها أن تصل إلى أغراضها الوهمية، ولكنها في سيرها حققت الرقي في كل معنى، وما كانت تتطلب منه شيئاً.

الباب الخامس

تحلل الخلق وسقوط الأمم

الفصل الأول

كيف تذبل الحضارات فتموت

تحلل الأنواع النفسية – كيف تنعدم الكفاءة الوراثية في زمن قصير بعد أن احتاجت في تكوينها إلى دهر طويل – في أنه ينبغي للأمة زمن طويل لتبلغ ذروة الكمال الممكن وقد لا تحتاج إلا إلى زمن قصير لتنحط إلى الدرك الأسفل – في أن أهم عوامل انحطاط الأمة انحطاط خلقها – في أن طريقة انحلال المدنية واحدة عند جميع الأمم حتى الآن – في علامات الانحطاط البادية في بعض الأمم اللاتينية – في نمو حب الذات – في ضعف الهمة الذاتية والإرادة – في انحطاط الخلق والآداب – في الشبيبة الحاضرة – فيما قد يكون للاشتراكية من التأثير – في أخطارها وقوتها – في أنها تقود الحضارة التي تمني بها إلى تطورات وحشية صرفة – في الأمم التي يجوز انتصار الاشتراكية فيها.

شأن الأنواع النفسية في عدم الدوام شأن الأنواع التشريحية أي الجسمانية، لأن أحوال البيئة التي تقتضي وجودها لا تدوم مدى الدهر، فإذا تغيرت تلك الأحوال لا تلبث عناصر المزاج العقلي التي كانت مرتكزة عليها أن تتضاءل حتى تنعدم، فهناك إذن نواميس طبيعية تحكم علي خليات العقل كما تحكم على خليات الجسم، وهي ظاهرة الأثر في جميع الكائنات، ومن مقتضى تلك النواميس أن الزمن الذي يلزم لانعدام

الأعضاء التي تتكون الذات منها أقصر جداً من الزمن المقتضى لتكوينها، ذلك لأن العضو الذي لا يعمل يعدم خاصية العمل بلا توان كعيون السمك التي تعيش في المياه خلال الصخور يضعف نورها ويصير ذلك الضعف وراثياً مع الزمن وإذا نظرنا إلى حياة الإنسان على قصرها وجدنا أن العضو الذي لم يتكون إلا بعد أجيال كثيرة بتعدد الوراثة يشبل سريعاً إذا بطل استعماله.

ولا يشذ المزاج العقلي عن حكم هذه النواميس فالخلية المخيفة التي لا تعمل تفقد وظيفتها، ومن هنا صح أن بعض الكفاءات العقلية التي تتكون على طول الزمن تزول في وقت قصير، فالشجاعة وقوة الاستنباط والعزيمة والإقدام وغيرها من صفات الخلق كلها بطيئة التكوين، وهي سريعة الزوال إذا لم تجد محلا للعمل فيه، ومن هنا يعلم السبب في أن الأمة تنال قسطاً من الرقي إلا بمرور العصور الطويلة وأنها قد تهوى إلى الحضيض على عجل.

وإذا أمعنا النظر في أسباب سقوط جميع الأمم التي يذكرها التاريخ بلا استثناء لا فرق في ذلك بين الرومان أو العجم أو غير هؤلاء وهؤلاء وجدنا أن العامل القوي في انحلالها تغير طرأ على مزاجها العقلي ترجع علته إلى انحطاط الخلق، ولست أعلم أن دولة واحدة سقطت لانحطاط الذكاء في قومها، فطريقة انحلال المدنيات واحدة، حتى أن الإنسان ليتساءل كما فعل أحد الشعراء إن كان التاريخ الذي امتلأت به المجلدات العديدة صفحات كثيرة أو هو في الحقيقة صفحة متكررة.

إذا بلغت الأمة ذروة الحضارة والقوة فأمست في مأمن من غارة الجار ومالت إلى التمتع بنعمة السلام والمعيشة الراضية التي هي بنت اليسر ماتت فضائلها الحربية وتجدد لها من الحاجات بقدر ما زاد في حضاراتها، وتمكن حب الذات من النفوس ولم يعد من همها الإسراع التمتع بالخيرات التي نالتها على عجل، فتنصرف الهمم عن الاشتغال بالمصالح العامة، وتضيع في الناس الفضائل التي كانت سببا في عظمة الأمة، وحينئذ يغير عليها جارها من الأمم المتبربرة أو التي هي في حكمها، لأنه إن كان أقل منها حضارة فهو أشد خيالا ثم يهدم حضاراتها ويقيم أطلالها حضارة أخرى، ذلك ما جرى للرومانيين والفرس فإنهم على ما كانوا عليه من أحكام النظام شتت البربر شمل الدولة الأولى كما شتت العرب شمل الثانية، ومن المحقق أن الذي أعوز المغلوب لم يكن هو العقل والذكاء، بل أنه لا مناسبة في ذلك بين الغالب والمغلوب، لأن أرقى العقول وأكبر الفطن ظهرت في روما وهي حيلي بموجبات سقوطها أعني في عصر الإمبراطورة الأول، ففي ذلك الزمان نبغ أهل الفنون والأدباء والعلماء، وإلى ذلك العصر ترجع جميع الأعمال التي بنى عليها مجد تلك الأمة الباذخ، ولكنها كانت أضاعت العامل الأساسي الذي لا يقوم الذكاء مقامه مهما بلغ، ألا وهو الخلق.

كان للرومانيين الأولين حاجات قليلة وخيال قوي هو عظمة روما، وكان هذا الخيال مستولياً على جميع القلوب، وكل وطني كان يفديه بالمال والنفس والعيال، فلما صارت روما قطب دائرة الدنيا وأغنى مدينة في العالم جعل الأجانب ينسلون إليها من كل حدب فمنحتهم في آخر

الأمر لقب وطنيين، وما كان لهم حظ إلا التمتع بزخرفها، وما كان لهم عناية بعزها وعلو مكاناتها، وأصبحت تلك المدينة الكبرى محشراً في الخلائق من جميع الأجناس، إلا أنها لم تكن إذ ذاك روما، وكانت تلوح عليها في الظاهر علامات الحياة، ولكنها كانت لفظت روحها منذ عهد بعيد.

وهناك أسباب شبيهة بالتي سبقت تهدد بقاء حضارتنا الراقية.

ويزداد عليها أسباب جديدة آتية من التغير الذي طرأ على الأفكار بتأثير الاكتشافات العلمية العصرية، فقد بدل العلم بأفكارنا الأولى أفكاراً أخرى، وأفقد ما كان للمبادئ الاجتماعية الدينية من التأثير في الناس، وأزاح الستار للإنسان فعلم مقدار دقة مكانه في هذا الوجود، وعلم أن الطبيعة غير شاعرة به فيها، وفقه بأن الذي كان يسميه حرية ليس إلا الجهل بأسباب الاسترقاق وأن شانه في الحياة الدنيا أن يكون عبداً بين مخالب الأقدار التي تدفعه بالقهر عنه وأيقن بأن الطبيعة لا تعرف تلك العاطفة التي يسميها الرحمة، وأن الرقي الذي وصلت إليه الإنسانية لم تلده الطبيعة إلا بعامل التفاعل بين العناصر الكونية قويها يدق عنق ضعيفها، تلك أفكار شديدة الوقع يقف منها الدم جامداً في عروقه وهي تخالف معتقدات آبائنا الذين كانوا بها في عيشة راضية، وقد ولدت في النفوس شكوكا مزعجة، وجلبت على أهل العقول الصغيرة فوضى الأفكار الذي يمتاز المرء في هذا الزمان، وغيرت تلك الشكوك أطوار الشبيبة المشتغلة بالآداب والفنون، فغرست فيها جموداً مشوباً بالكآبة، وذلك أفقدها الإرادة، ونزع منها المقدرة على الاهتمام بأي أمر، وجعلها تعبد

المنافع الذاتية الوقتية دون سواها.

لاحظ أحد كبار الكتاب في هذا العصر ملاحظة أصاب بها الواقع وهو "أن الحسن النسبي متسلط على ملكة التصور في هذا الزمان" وأراد أحد وزراء المعارف أن يشرح هذه المشاهدة في خطابة ألقاها حديثا فقال وملامحه تدل على سروره من نفسه "إن حلول المبادئ النسبية محل المبادئ الكلية في جميع معارف الإنسان هي أكبر الفتوحات التي أتانا العلم بها" على أن هذا الفتح قديم في الحقيقة لا جديد، ففلاسفة الهند كاونا يقولون به منذ عشرة قرون، وليس مما يسرنا رجوعه عندنا مرة ثانية، لأن الخطر كل الخطر ناشئ على الأخص من فقدان التصديق بالمعتقدات التي كانت حياة الأمم قائمة عليها، وأني لا أعرف من أول التاريخ حتى الآن إلا قيمة نسبية، فإن قيل أن المستقبل في الظاهر لمذاهب الاشتراكيين التي يردها العقل فالسبب في ذلك أن تلك المذاهب هي التي يدعي القانون بنشرها أنها مشتملة على حقيقة كلية، ومن عادات الجموع أنها تلتف حول الذين يدعونها إلى الحقائق المطلقة ولا تعتد بمن عداهم ولا يكون الرجل سياسيا إلا إذا سير روح الجموع ووقف على حقيقة أخلاقها وترك التجريدات الفلسفية ظهرياً فإن الأشياء لا تتغير إلا قليلا، وإنما الذي يتغير صورها والفطن هو الذي يستخدم تلك الصور.

نعم ليس في وسعنا أن نعرف من حقيقة الوجود إلا ما ظهر أعني حالات نفسية قيمتها نسبية بالضرورة، لكن إذا نظرنا إلى الجهة

الاجتماعية جاز لنا أن نقول بأن لكل عصر ولكل أمة أحوالاً وآداباً ونظامات ذات معنى كلي، ولا بقاء لتلك الأمة إلا بذلك كله، فإذا قام الجدل عليه وتطرق الشك فيه إلى العقول فقد اقتربت ساعة الأمة لا محالة.

هذه حقائق ليس هناك حرج من تقريرها فما من علم ينكرها والضرر كل الضرر في تقرير ما يخالفها أما مذهب المدمية الفلسفية الذي يتصدى لبثه بعض أهل الرأي في ضعفاء المعقول فإنه يفضي بهؤلاء إلى اعتقاد أن نظام الهيئة الاجتماعية الحاضر نظام جائر لا رحمة فيه البتة، وأن طبقات الناس التي فطروا عليها ضرب من الهزء والسخرية ويغرس في قلوبهم ابغض ما هم عليه من كل شيء وتقودهم مباشرة إلى الاشتراكية والفوضى، وساسة هذا الزمان شديدو الاعتقاد بتأثير النظامات ضعيفو الإيمان بالمبادئ مع أن العلم تكشف القناع لهم عن اشتقاق الأولى من الثانية وأن بقاء النتائج على الدوام مشروط ببقاء المقدمات، فالمبادئ عبارة عما في الكائنات في العوالم الباطنة، وإذا انعدمت تهدمت بانعدامها الأسس الخفية التي ترتكز عليها النظامات والحضارة وكذلك كان أشد أوقات الأمم محنة هو الزمان الذي ذهبت فيه مبادئها إلى حيث دفنت معتقداتها.

وإذا انتقلنا من المقدمات إلى النتائج وجب علينا التسليم بأن علامات الانحطاط أصبحت بادية في معظم الأمم الأوروبية وعلى الأخص في الأمم المعبر عنها باللاتينية سواء جاءها هذا الوصف من حيث الأصل أو من حيث التقاليد والتربية، فتراها تفقد كل يوم شيئاً من

قوة الاستنباط والهمة والإدارة والكفاءة للعمل، وتكاد تكتفي بسد حاجاتها المادية، وهذه كل يوم في ازدياد، أما العائلة فصائرة إلى الانحلال، وقوى المجتمع آخذة في التمزق، والغضب والحرج ينتشران في جميع الطبقات من أحقر الفقراء إلى أكبر الأغنياء وأشبه الإنسان في هذا الزمان مركباً فقدت ربانها فهامت كما تشاء الأقدار أني تسيرها الرياح، وأخذ يضرب في أودية الفراغ التي كانت تملأها الآلهة فجعلتها العلوم قاعاً صفصفاً فأما أضاع الإنسان ربه فقد الرجاء، وقويت في الجموع حاسة التأثر، وصارت سريعة التحول إلى الدرجة القصوى، ولم يعد أمامها من سد يرد جماحها، فهي تموج بلا انقطاع متنقلة من جنون الفوضى إلى خنوع الاستبداد، مجرد القول يثيرها، ولها كل يوم معبود جديد تسجد له في الصباح وتقدسه في المساء، يخيل لك أنها تجد في طلب الحرية، وهي في الحقيقة تطاردها وتسأل الحكومة أن تضع في أعناقها سلاسل وأغلالاً، تقدم الطاعة العمياء لأحقر شيعتها وأضيق المستبدين نظراً، والقوالون الذين يظنون أنهم يقودونها وهم إنما يسيرون خلفها لا يفرقون بين من ملكه الضجر وهاجت أعصابه فطلب كل يوم سيداً جديداً وبين روح الاستقلال الذي يأتي الخنوع لسيد مهما كان، الحكومة على اختلاف مسمياتها هي المعبود الذي تستقبله الأحزاب كلها، ويطلبون منها كل يوم قيداً جديداً، وحماية تزيد في ثقل حملها على الناس يرغبون إليها أن تحيط الأمة في دقائق الأعمال وجلائلها بنظامات أشد من نظامات البيزنطيين وأكبر استبداداً، وترى الشبيبة كل يوم مائلة عن الأعمال التي تقتضي التعقل وقوة الاستنباط والهمة

والمجهود الذاتي والإرادة، تجزع من التبعة وإن صغرت، وتكتفي بالانزواء في وظائف الحكومة الدنيا، والتجار يجهلون طريق الاستعمار، والذين في المستعمرات هم الموظفون[٢٣] واستعاض رجال السياسة الهمة والعمل بمناقشات شخصية يرتاع الإنسان من تجردها عن المعنى، كما استعاضت الجموع تينك الصفين بالاندفاع أو الغضب الذي يغيب مع شمس يومه، وحل محلهما في المتعلمين وجدان تبلله دموع العجز وقد اختلطت فيه صور الأشياء ثم أقوال فاترة يندبون بها شقاء هذا الوجود، وأني دنوت وجدت حب الذات بالغاً حده، وأمة هذه حالها لا يكون للفرد منها هم إلا بذاته، وهنالك تلقى الضمائر سلاحها وتنحط درجة الآداب العامة إلى أن تزول شيئاً فشيئاً[٢٤] ويفقد المرء كل قدرة على قياد

(٢٣) انقل هنا عن جريدة (السيكل) نبذة من خطاب القاه موسيو (اتيين) وكيل نظارة المستعمرات في مجلس النواب بتاريخ ٧ نوفمبر سنة ١٨٩٠ قال "يبلغ سكان (قوشنشين) ١,٨٠٠,٠٠٠ نسمة بينها ١,٦٠٠ من الفرنسيين ومنهم ١,٢٠٠ موظفون ويحكمها مجلس ينتخبه هؤلاء مولها نائب في مجلس الشورى أفهل ترجون أن لا تنتشر الفوضى في تلك البلاد (ضجيج وضحك من أماكن كثيرة) أتعلمون نتائج هذا التدبير وأنه ينجم عنه أن الميزانية مع أنها سقطت إلى ٢٢ مليونا تبتلع الإدارة منها تسعة ملايين وقد كنت عمدت في سنة ١٨٧٧ إلى الإقلال من الموظفين فأنقصت المال المخصص لهم بمقدار ٣,٥٠٠,٠٠٠ فرنك وكان ذلك في شهر أكتوبر وفي شهر ديسمبر سقطت الوزارة التي كنت منها وفي شهر مارس كان الذين أعفيهم من الخدمة عادوا كلهم إلى وظائفهم".

(٢٤) يعظم خطر الانحطاط الآداب إذا نزل ببعض الطبقات كطائفة القضاة والموثقين الذين كانوا قديماً يمتازون بالعفة امتياز الجندي بشجاعته وقد سقطت أداب الموثقين في هذا العصر إلى درجة سحيقة فإن الإحصاء الرسمي يدل على أن نسبة المتهمين منهم بلغت ٤٣ في كل ١٠,٠٠٠ مع أن نسبة المتهمين في الأمة كلها لا تزيد عن واحد في مثل ذلك العدد وقرأت في الجريدة الرسمية الصادرة بتاريخ ٣١ يناير سنة ١٨٩٠ البذة الآتية من تقرير رفعه ناظر الحقانية

نفسه، فلا يعود يضبطه ميوله، ولم يسد نفسه ساد غيره عليه.

من الصعب تغيير هذا الحال، إذ يجب علينا قبل كل شيء أن نغير طريقة تربيتنا اللاتينية المحزنة فإنها تجردنا من قوة الاستنباط ومن كل همة إن كانت الوراثة تركت فينا أثراً مما ذكر، ثم هي تقتل ملكة الاستقلال العقلي لأنها لا تبقي للشبيبة مطمحاً إلا المسابقة في الامتحانات، وذلك أمر ممقوت لا يقتضي إلا إجهاد الحافظة، ونتيجته أن يتولى جميع الشؤون في الأمة أناس تنحصر أهليتهم في الاستسلام إلى التقليد وهم لذلك أقل العاملين جدارة بولاية الأعمال التي تطلب الهمة الذاتية والإقدام، زار "جيزو" المدارس الإنجليزية فقال له بعض كبار المعلمين "أني أحاول أن أصب شيئا من الحديد في روح التلاميذ" فأني ترى في الأمم اللاتينية معلمين ونظامات تعليم تؤدي إلى مثل هذا الخيال، ولعل النظام العسكري يحققه،.

إلى رئيس الجمهورية قال "زادت المصائب التي أقلقت الأمة منذ سنة ١٨٤٠ حتى اضطر أحد سلفائي سنة ١٨٧٦ إلى إلفات النيابة لحالة الموثقين إلفاتً خاصاً لأن الرفت والمصائب التي كانت تقع في ذلك الحين أخذت صبغة لم تعهد من قبل فزاد عدد هذه الوقائع المخزنة من (٣١) سنة ١٨٨٢ إلى (٤١) سنة ١٨٨٣ إلى (٥٤) سنة ١٨٤٤ إلى (٧١) سنة ١٨٨٦ وبلغ مجموع ما اختلسه الموثقون بين سنة ١٨٨٠ وسنة ١٨٨٦ اثنين وستين مليونا وفي سنة ١٨٨٩ أخليت وظائف مائة وثلاثة موثقين بعضهم بالعزل والبعض بإجباره على ترك وظيفته، وإذا جمعنا إلى هذه الحوادث سقوط المشروعات المالية الكبيرة مثل بنك (الكنتوارديسكونت) وبنك الخصم والتوفير وبناما وغيرها وجب علينا الإقرار بأن للاشتراكيين بعض العذر في سخطهم على آداب الطبقات التي تدير شؤون الأمة ومن نكد الحظ أن هذا الانحطاط الأدبي باد في جميع الأمم اللاتينية كما تدل عليه فضيحة البنوك الرسمية في إيطاليا حيث ظهر فيها أن أرفع رجال السياسة كانوا يسرقون الأموال بغير حساب ثم إفلاس (البرتغال) والحالة المالية التعيسة الجارية.

وعلى كل حال فهو وحدة الوسيلة إليه، فأهم الشروط التي تلزم لنهوض الأمم المائلة إلى السقوط تعميم نظام الجندية وجعله قاسياً جداً وأن تكون الأمة على الدوام مهددة بحروب طاحنة.

تلاقي الأمم اللاتينية صعوبة في البقاء تحت ظل شرائع

في إسبانيا وإيطاليا والسقوط العميق الذي وقعت فيه الجمهوريات اللاتينية في أمريكا كل ذلك يثبت أنه قد أصاب خلق بعض الأمم وآدابها مرض لا دواء له وأن شأنهم في الوجود مشرف على الزوال.

حرة بعيدة عن الاستبداد بعدها عن الفوضى، وتلك الصعوبة آتية من انحطاط الخلق العام وفقدان أفراد الأمة ملكة ضبط نفوسهم وانصرافهم عن المرافق العامة إلى حب الذات، ومن السهل أن يدرك المتأمل بغض الجموعمثل هذه الشرائع لأن الجموع ميالة إلى الحكم القيصري رجاء أن بنيلها المساواة في التسخير لا في الحرية التي لا تكاد تأبه بها، ولكن الذي يصعب إدراكه نفور الطبقات المستنيرة من النظامات الحرة اللهم إلا إذا حملناه على ما ورثناه عن آبائنا الأولين، ومع أن النبوغ في كل معنى وعلى الأخص رقي المدارك لا يجد جواً يسبح فيه أصفى من جو هذه النظامات، ولعل العيب الوحيد فيها عند طلاب المساواة على كل حال هو صلاحيتها لتكوين طوائف عقلية ممتازة ذات قوة عظمى وأما أشد النظامات عبثاً بالأخلاق وبالعقول فهو النظام القيصري على اختلاف أنواعه، ولا فضل له إلا أنه يسوي بين جميع الناس في انحطاط النفس والهون في المذلة، وهو أليق النظامات

بالأمم الهاوية إلى السقوط، لذلك ترجع إليه ما وجدت إلى الرجوع سبيلاً وبهجة لباس قائد أيا كان يجرها إلى تلك الهاوية، ومتى وصلت الأمة إلى هذا الدور فقد تولى زمانها ودنا سقوطها.

عهد التاريخ بالقيصرية أنها تظهر في الحضارة أبان نهوضها وأبان سقوطها وهي الآن تدخل في تطور ظاهر للعيان حيث تبدو لنا باسم الاشتراكية، والاشتراكية فناء الفرد في الدولة بل هي أشد من القيصرية لأن أكبر المستبدين عتواً يخشى العاقبة ولكن حكومة الجمع لا سبيل لأخذها بتبعة وإن عظمت الاشتراكية في عصرنا أكبر الأخطار التي تهدد الأمم الأوروبية في وجودها، وهي لا محالة مجهزة عليها في سقوطها بعد أن عملت فيها العوامل الأخرى وقد تنقضي بسببها الحضارات الغربية.

ولكي تقف على مقدار الخطر الذي ينجم عن هذا المذهب وعلى شدة تأثيره انظر إلى قوة استخلاص النفوس إليه لا إلى التعاليم التي جاء بها، فكاني به وقد أصبح الدين الجديد لكل من شقت عليه الحياة وشعر بوقر الأحوال الاقتصادية الناشئة عن حضارة هذا الزمان، وأولئك جموع لا تحصى، وسيملأ هذا المذهب السموات بعد أن أمست خالية، ويقوم في نفوس الذين ضعفوا عن احتمال الحياة بلا خيال مقام الجنة التي كانوا يرونها خلال نوافذ الجوامع والصوامع، عشاق هذا الدين القادم كل يوم في ازدياد، وعما قريب تظهر ضحاياه، وحينئذ يصير أحد المعتقدات الدينية التي تهب الأمم لصوتها، وتالتي تملك القلوب ملكاً مطلقاً.

أما كون مذهب الاشتراكية يقضي بالأمة إلى أخس درجات

الاسترقاق ويقتل في نفوس من خضعوا لحكمه كل همة وكل استقلال فذلك ما لا جدال فيه، غير أنه ر يعرف ذلك إلا علماء النفس الواقفون على أحوال الحياة إلا أنه بعيد عن مخيلات الجموع لأنها لا تسلم بمثل هذه الأدلة، والأدلة التي تقنع بها لا تأتي من طريق العقل.

وأما كون هذا المذهب بعيداً عن التسليم به من كل من له أدنى ذوق سليم فهو أيضاً مما لا ينكره أحد، إلا أن المذاهب الدينية التي ملكت قيادنا مدى الدهور حتى الآن كانت بعيدة أيضاً عن كل ذوق سليم، وما كان ذلك مانعاً من خضوع أكبر العقول لسلطانها، إن الإنسان لا يصغى في المعتقدات لغير شعوره اللاتنبهي، وللشعور اللاتنبهي دائرة لا محل للعقل بين محتوياتها.

وعليه فلا مناص للأمم الأوروبية من الرضوخ لدور الاشتراكية مهما احتوى من خطر عملاً بطبيعة المزاج العقلي الذي خلقه الزمان فيها، وسندخل به في آخر دور من أدوار الانحطاط لأنه يهبط بالحضارة إلى الدرك الأسفل، ويمهد السبيل لغارة البربر التي تهددنا بالخراب.

وإذا استثنينا الأمة الروسية التي هي أمة أسيوية من الجهة النفسية أكثر منها أوروبية لا نرى في أوروبا غير الإنجليز لهم عزيمة كبيرة ومعتقدات ثابتة وخلق يميل إلى الاستقلال يحميهم من سبيل الدين الجديد، أما ألمانيا الجديدة فأنها ستكون من أول ضحاياه بالرغم من مخايل الرقي التي تظهر عليها، بدليل نجاح الطوائف الاشتراكية المنتشرة في ربوعها، ومن المحقق أن الاشتراكية التي تقضي إلى خرابها ستلبس

ثوباً علمياً خشناً قد يليق بأمة تصويرية يتعذر وجودها في بني الإنسان ولكن المولود العقلي الأخير سيكون أشد تعصباً وأكبر قوة من أخوته السابقين، وألمانيا أكثر الأمم استعداداً لقبوله فإنها فاقت على الكل في فقدان ملكة الاستنباط والاستقلال وعادة حكم الأمة نفسها[٢٥].

أما الروسية فإنها كانت إلى عهد قريب على نظام "المير" أعني نظام الاشتراكية المعروفة عند الأمم الفطرية وهو أكمل صور الاشتراكية، بل هي لم تخلص منه تماماً، ولا يمكن أن تفكر في الرجوع إلى تلك الحال المنحطة فلها مستقبل آخر، إذ لا شبهة في أنها هي التي ستسوق الجموع البربرية على الأمم الأوروبية لتهضم حضاراتها بعد أن تكون الحروب الاقتصادية ومذاهب الاشتراكية مهدت لها السبيل.

إلا أن هذه الساعة لم تأت بعد ولا يزال بيننا وبينها بعض المراحل، على أن في الاشتراكية من شدة العسف يمنع من بقائها وستجعل الناس يترحمون على عصر "تيبير" و"كاليجولا"، إنا لنعجب كيف احتمل الرومانيون مظالم هذين الجبارين وأمثالهما،ولكن العجب يزول متى عرفنا أنهم كانوا قطعوا أدوار الحروب الاجتماعية والأهلية وقاسوا أنواع الحرمان في النفي حتى فقدوا خلقهم ورأوا في أولئك الظالمين آخر وسيلة للسلامة التي كانوا يرجونها واحتملوا منهم كل حيف لأنهم ما كانوا يعرفون كيف يستعيضونهم بغيرهم، والواقع أنهم لم يجدوا بديلا عنهم بعد زوالهم بل جرفهم سيل البربر وحطم مدينتهم، تلك كانت عاقبة دولة

---

(٢٥)أكبر الكتاب الألمانيين موافقون كل الموافقة على هذا جاء في الكتاب.

الرومان وتلك دورة التاريخ في الزمان.

موسيو "زيجلر" الأستاذ في كلية "استرا سبروج": إذا الميل العام في إنجلترا إلى حكومة الأمة نفسها فإن التمويل على الحكومة هو ما تمتاز به الأمة الألمانية، فنحن أمة وضعت تحت الوصاية منذ دهر طويل أضف إلى ذلك أن يد "بسمارك" القوية أفقدتنا مدى الشرين سنة الماضية ملكة الاستنباط والشعور بالتبعة وإن كانت جعلتنا في مأمن مما كنا نخاف ومن أجله نلجأ إلى الحكومة في كل حادث جلل بل في الحوادث الصغيرة أيضاً ولكل كل شيء لعنايتها" .... المؤلف.

وكأني بالمؤلف ينزل مشاعر قومه منزلة الواقع وكأني بموسيوإيجلر يشجع قومه ويستنهضهم إلى أبعد ما وصلوا إليه فالظاهر للعيان أن الألمان أمة جد وإقدام وهمة واستنباط ومثابرة ورقي مستمر.

الفصل الثاني

خلاصة عامة

نوهنا في مقدمة هذا الكتاب بأنه موجز لخصنا فيه ما كتبناه في تاريخ حضارات الأمم، فكل فصل من فصوله بمثابة خلاصة المؤلف سابق، وعليه فمن الصعب تلخيص هذا التلخيص ولكني سأحاول ذلك لفائدة القراء الذين يعوزهم فراغ الوقت وأقدم لهم المبادئ الأساسية التي تشتمل عليها فلسفة هذا الكتاب في صورة قضايا موجزة.

لكل أمة خواص نفسية ثابتة ثبات خواصها الجسيمة تقريباً، والنوع النفسي كالنوع الجسمي أي المادي لا يتغير إلا على طول السنين ومر الأجيال.

يوجد بجانب الخواص النفسية الثابتة الوراثية التي يتكون منها المزاج العقلي لكل أمة خواص ثانوية تنشأ من تغيرات البيئة وتتجدد على الدوام فيخيل لذلك أن الأمة في تحول مستمر كبير.

المزاج العقلي لكل أمة هو خلاصة أفرادها الأحياء وأسلافهم الذين كونوها. فالشأن الأول في حياة الأمم للأموات لا للأحياء لأنهم هم الذين خلقوا شعورها الأدبي وهيأوا الأسباب البعيدة في سيرها.

تمتاز الأمم بعضها عن بعض بفروق كما امتازت بفروق نوعية، والأولى ملازمة للثانية، والفرق ضعيف بين أفراد المثال الوسط في أمة ومثلهم في أمة أخرى وعظيم جداً بين أفراد الطبقات الراقية، ومن هذه المقارنة يتبين أن الفارق بين الأمم الراقية وبين الأمم المنحطة هو في احتواء الأولى عدداً غير قليل من ذوي العقول الكبيرة وفي أن ذلك غير موجود في الثانية.

يتساوى أفراد الأمة المنحطة فيما بينهم مساواة واضحة وكلما ارتقت الأمة وجدت الفروق بينهم. فأثر الحضارة الذي لابد منه هو إيجاد الفروق بين الأمم وبين الأفراد، وعليه فهي سائرة نحو التفاوت لا نحو المساواة.

حياة الأمة ومظاهر حضاراتها مرآة روحها تدل على أمر خفي لكنه موجود، فالحوادث الخارجية أثر ظاهر لنسيج خفي هو الفعال.

ليس الشأن الأول في حياة الأمم للاتفاق ولا للأحوال الخارجية ولا للنظامات السياسية على الأخص بل لخلق كل أمة لما كانت عناصر مدنية كل أمة هي الدلالة الخارجية على مزاجها العقلي أعني ممثلة حال تلك الأمة من حيث الكيفية الحاصة بها في شعورها بالمحسوسات وتصورها إياها فمن المتعذر نقل تلك العناصر إلى أمة أخرى من دون تغيير فيها، وإنما الذي يمكن نقله هي الصورة الظاهرة السطحية التي لا قيمة لها.

اختلاف المزاج العقلي بحسب الأمم يجعل كل واحدة تتصور الوجود بصورة خاصة فهي إذن تختلف في الحس والعقل والعمل، ويقوم

النزاع بينها على جميع المسائل متى احتكت ببعضها. وهذا التنازع هو سبب جميع الحروب المدونة في التاريخ. فحروب الفتح والحروب الدينية وحروب العائلات المالكة كلها في الحقيقة حروب جنسية.

لا يتكون من مجموع أفراد مختلفي الأصل شعب مستقل، أعني أنهم لا يكون لهم روح يشتركون فيها كلهم إلا إذا كثر تبادل النسل بينهم مدة طويلة، واتحدت معيشتهم في بيئات متحددة، وصارت مشاعرهم واحدة ومنافعهم مشتركة، ومعتقداتهم عامة.

لا يكاد يوجد في الأمم المتحضرة شعوب أصلية بل ليس هناك إلا شعوب صناعية تكونت من أحوال تاريخية.

لا يؤثر تغيير البيئة تأثيراً شديداً إلا في الشعوب الجديدة أعني التي تكونت من أخلاط شعبية تفككت أخلاقها الموروثة بكثرة التناسل، فلا يفل الوراثة إلا الوراثة، وإذا لم يكن للتناسل من القوة ما يكفي لزعزعة الأخلاق وتشتيتها كان تأثير تغيير البيئة قاصراً على التخريب، وقد يموت الشعب القديم ولا يقبل التغيير الذي تقتاضيه ضرورة انطباعه على بيئة جديدة.

تبلغ الأمة ذروة مجدها متى تم لها روح قوي عام وتسقط متى تخلل هذا الروح. وأهم العوامل في هذا التحليل دخول عنصر أجنبي في الأمة تتأثر الحوال النفسية كالأنواع المادية بالزمان كلاهما ينهزم ويموت، وتحتاج كلها في تكوينها إلى زمن طويل، وقد تزول في وقت قصير، إذ يكفي أن تضطرب وظائف أعضائها ليحدث فيها تطور نحو السقوط وقد

تكون نتيجة الدمار العاجل. فالأمم تقطع قروناً طوالا قبل أن يثبت لها مزاج عقلي خاص. وقد تفقده في برهة يسيرة، فالشقة التي تسير فيها إلى الحضارة بعيدة ومنحدر السقوط قصير غالباً.

المبادئ من أهم عوامل الحضارة بعد الخلق ولكنها لا تؤثر إلا بعد أن تتطور على مهل حتى يصير شعوراً وتصبح جزءاً من الخلق نفسه وتخرج بذلك من دائرة البحث والنظر، ولا تزول المبادئ إلا بعد مرور دهر طويل، وكل حضارة ترجع إلى بعض مبادئ أساسية مسلم بها من الكافة.

أهم المبادئ المؤثرة في الحضارة المبادئ الدينية واختلاف الأديان هو السبب البعيد في أعظم حوادث التاريخ، فتاريخ الإنسانية مقترن على الدوام بتاريخ آلهتها، وهؤلاء أبناء خيالنا ولهم مع ذلك سلطان كبير حتى أن تغير أسمائهم كاف وحداة في قلب نظام العالم بأسره، وظهور آلهة جديدة كان على الدوام طليعة لحضارة مقبلة واختفاؤهم كان الدوام نذيراً بزوال حضارة مدبرة.

الفهرس

الباب الرابع

كيف تتحور الصفات النفسية للأمم

الباب الخامس

تحلل الخلق وسقوط الأمم